الشعـراء والسـلطة

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية - مدينة نصر - ص . ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

أحمد سويلم

الشعراء والسلطة

دار الشروق



ـ الصمتُ موتْ

قلها . . ومتْ

فالقول ليس ما يقوله السلطان والأمير

وليس تلك الضحكة التى

يبيعها المهرج الكبير

فأنت إن نطقت متْ

وأنت إن سكتّ . . متْ

قلها . . ومت!

معين بسيسو

ـ الشعْرُ أعذبُه الكذُوبْ

قالوا :

وما صدقوا . .

لأنهمُ تنابلةٌ . . وعوُر

كانوا حذاء للسلاطين الغزاةِ

بلا قلوبْ . .

يا شعرُ حطّم هذه الأوثانَ

واقتحم الخطوبْ

وتعالَ نرتادُ البحار

ونجْتلى نجمَ الشّعوب

أنا ذاهبٌ كى أقرع الأجراسَ

كى أطأ اللهيب . !

عبدالوهاب البياتى

ـ قــفْ!

لا تقعد أو تسْتسلمْ

عشْ ممتشقًا فى أقدامك

فإذا بتروا ساقيك

قفْ!

قفْ فوق يديك . .

فإذا شُلَّتْ

فعلى رأسك قفْ

فإذا انفجر الرأسُ شظايا

قف ـ يا مقهور ـ على ظهرك

فإذا كسروا الظهر

فابحث عن قوقعةٍ

أو شرنقة

أو كهف مهجور

وتخلَّص من هذا الإنسانْ!

أحمد سويلم

ـ مــاذا بعــد . ؟

هل حلّتْ لعنة فرعونَ الأولى

أم حلّ الهمّ

هل تنتظرُ الأقلامُ القصفْ

وتنتظر الأوراق العصف

ونرضى فى دنيانا زمَّ الفم . .

ـ تعالوا يا شهداءَ الكلمة

أحياءً . . أمواتا . .

هذا زمنُ الوجع الدامى

يعلنُ محنته الآن

فاختاروا . .

اختاروا أن تحيوْا زمنًا آخر

أو . .

فانكسرُوا عجزًا فوق الأعناق . !

أحمد سويلم

مدخــل

قيل: لما استخلف عمر بن عبدالعزيز - رضى الله عنه - وفد إليه الشعراء وأقاموا ببابه أياما . . وهو لا يأذن لهم . . فلم يكن عمرُ ممن يغترون بمديح الشعراء ويتطلعون إليه على نحو ما كان من خلفاء بنى أمية وأمرائهم . . وإنما كان رجلا يسير على نهج الراشدين فى سيرته وحكمته وورعه . . كما كا ن يحافظ على أموال المسلمين فلا ينفق منها شيئا إلا فى مصرفه الصحيح . .

فبينما الشعراء كذلك على بابه . . مرّ بهم عوْن بنُ عبدالله وعليه عمامة قد أرخى طرفيْها - وكان جليسَ عمر - فلما رآه الشاعر جرير داخلاً . . قام إليه وأنشده:

يا أيها الرجلُ المُرخِى عمامتَه
هذا زمانُك إنى قد مضى زمنى

أبلغ خليفتنا إن كنتَ لاقيه
أنى لدى الباب كالمصْفُودِ فى قرَنِ

فدخل الرجل على عمر . . ولم يذكر له شيئا من أمر الشعراء . .

ثم مرّ بهم عَدِيُّ بن أرْطَأة . . فقال له جرير يحثّه على الوساطة لدى الخليفة :

لا تنْسَ حاجتَنا لُقِّيتَ مغفرةً

قد طال مُكثِيَ عن أهلى وعن وطنى

فتبسم عدىّ . . ودخل على الخليفة . . فقال :

- يا أمير المؤمنين . .

الشعراء ببابك . . وسهامهم مسنونة . . وأقوالهم نافذة . .

قال عمر : ويحك يا عدىّ . . ما لى وللشعراء !

قال عدى : أعزّ الله أمير المؤمنين . . إن رسول الله - ﷺ - قد امتُدح وأعطى . . ولك فيه أسوة حسنة .

قال عمر : كيف كان ذلك ؟

قال : امتدحه العباس بن مِرْداس السُّلَمى فأعطاه حُلّةً قطع بها لسانه . .

قال عمر : أو تروى من قوله شيئا ؟

قال : نعم . . قوله :

رأيتك يا خير البرية كلها

نشرت كتابا جاء بالحق مُعْلِما

شرعت لنا دين الهدى بعد جوْرِنا

عن الحق لما أصبح الحق مُظْلِما

ونّورتَ بالبـرهان أمـراً مُـدَلَّسًـا

وأطفـأت بالإسـلام نارا تَضـرَّمـا

فـمن مُـبلغٍ عنا النبيَّ مـحـمـدا

وكل امـرئُ يجْـزَى بما كـان قـدَّمـا

أقـمت سـبيل الحق بعـد أعـواجـه

وكـان قــديما ركنُه قـد تَهـدَّمـا

فقال عمر : ويلك يا عدى!

من بالباب من الشعراء؟

قال عدى : رأيت عمرَ بن أبى ربيعة . .

قال عمر : أليس هو الذى يقول :

ثم نَبَّـهْـتُـهـا فـمـدَّت كـعـابا

طفـلةً مـــا تـبين رجْـعَ الكـلام

ســاعــةً ثم إنهـا بعـدُ قـالت :

ويلتـا قـد عـجلت يا ابن الكرام

فلو كان عدو الله إذا فَجَرَ كَتَم على نفسه لكان أسْتَر له . .

لا يدخل والله علىّ أبدا . . فمن بالباب سواه؟

قال عدى : الفرزدق . .

قال عمر : أو ليس هو القائل :

همــا دلّتــانى من ثمــانين قــامــةً

كـما انقضَّ بازٌ أقْتمُ الريش كاسِرُهْ

فلما استوت رجلاى فى الأرض قالتا :

أحَىٌّ فيـرجى . . أم قـتيلٌ نُحـاذِرُهْ

لا يدخل على والله . . فمن بالباب سواه . .

قال عدى : الأخطل . .

قال عمر : يا عدى . . أليس هو الذى يقول :

ولستُ بصـائم رمـضـان طوعـا

ولستُ بآكل لحـم الأضـــاحى

ولستُ بزاجـــرٍ عنسًـــا بكورًا

إلى بطحـــاءَ مكة للنّجـــاح(١)

ولست بزائر بيــتًـا عـتـيـقًـا

بمكة أبتـــغى فـــيـــه صـــلاحى

ولستُ بقـــائم بالليل أدعـــو

قـبـيل الصـبح حىَّ على الفـلاح

---

(١) العنس : الصلبة من الإبل .

ولكنى سـأشـربُهـا شَـمُـولاً

وأسـجـدُ عند مُنبلجِ الصبـاح[1]

والله لا يدخل على وهو كـافـر أبدا . . فـمن بالبـاب سـوى من ذكرت؟

قال عدى : الأحْوَص الأنصارى :

قال عمر : أليس الذى يقول :

اللـه بينى وبـين سـيّـدها

يفـرُّ منى بهـا . . وأتبـعُـهُ

فما هو بدون من ذكرت . . فمن هناك أيضًا؟

قال : جميلُ بن معْمَر . . .

قال عمر : أليس هو الذى يقول :

ألا ليتنا نحيـا جـميـعًا وإن أمُتْ

يُوافقُ فى الموتى ضريحى ضريحُها

فلو كـان عـدو الله تمنى لقـاءها فى الدنيـا ليـعـمـل بعـد ذلك صـالحًـا لكان أصـلح . . والله لا يدخل على أبدا . . فـهل بقى أحد . . ؟

قال : جرير . . .

---

(١) الشمول : البارد من الخمر .

قال عمر : أما هو فيقول :

ذُمَّ المنازل بعـــد منزلة اللّوَى

والعـــيشُ بعـــد أولئك الأيام

طرقَتْك صائدةُ القلوبِ وليس ذا

وقت الزيارةِ فارجعى بسلام

فان كان ولابد . . فهو وحده الذى يدخل علىَّ . .

خرج عدى واستدعى جريرًا . .

فلما دخل جرير على عمر قال له :

يا جرير اتق الله ولا تقل إلا حقًا . .

فشكا جرير إلى الخليفة شدة الحال وإلحاح الزمان . . وجهد العيال . . وسأله أن يأذن له فى إنشاده شعرا . .

فقال : يا جرير إنى لفى شغل عن الشعر . .

فقال جرير : إنها رسالة من أهل الحجاز يا أمير المؤمنين .

قال عمر : هاتها . .

فأنشد جرير :

قد طال قوْلى إذا ما كنت مجتهدًا

يارُبَّ عافِ قوامَ الدين والبشر

خليفة الله ثم الله يحفظُهُ
عند المقام.. وإما كان فى السَّفرِ
إنا لنرجو إذا ما الغيث أخْلَفَنَا
من الخليفة ما نرجو من المطرِ
نال الخلافة إذ كانت له قَدَرًا
كما أتى ربَّه مُوسى على قَدَرِ
أأذكر الجهد والبلوى التى نزلت
أم تكتفى بالذى بُلِّغتَ من خبرى
مازلتُ بعدك فى دار تُغَرِّقُنى
قد طال بعدك إصْعادى ومُنْحَدَرِى
كم باليمامة من شعثاء أرملةٍ
ومن يتيم ضعيف الصوت والبصرِ
يدعوك دعوة ملهوف كأن به
خبْلاً من الجن أو مسًا من النُّشَرِ
فمن يُعدُّك تكفى فقْدَ والده
كالفرخِ فى العشِّ لم ينهض ولم يطرِ

فقال عمر: يا جرير.. قد علمنا رسالتك.. وما أرى لك فيما هنا حقًا.. ما حاجتك؟

قال جرير :

هذى الأراملُ قد قضّيتَ حاجتها

فمن لحاجة هذا الأرملِ الذكرِ

الخير ما دمت حيًا لا يفارقُنا

بوركت يا عمر الخيرات من عُمَرِ

حاجتى يا أمير المؤمنين ما عوّدتنى الخلفاء قبلك . .

قال عمر : وما ذاك؟

قال جرير : أربعمائة من الإبل برعايتها وتوابعها من الحملان . .

قال عمر : أمن المهاجرين أنت؟

قال : لا . . .

قال عمر : فمن الأنصار . .

قال : لا . . .

قال : فمن أنت؟

قال جرير : من التابعين بإحسان . .

قال : إذن نجرى عليك كما نُجرى على مثلك . .

قال : لا أريد ذلك يا أمير المؤمنين . .

قال عمر : فما أرى لك فى بيت المال حقا . .

قال : إنما جئت أسألك من مالك . .

قال عمر : إن لى كسوةً ونفقةً وأنا أقاسمكهما . .

قال : بل أوثرك وأحمدك يا أمير المؤمنين . .

وانصرف وهو يقول :

رأيت رُقى الشيطان لا تسْتَفِزُّه

وقد كان شيطانى من الجن راقيا

فلما رآه الشعراء قالوا له : ما وراءك يا جرير . . ؟

قال : ما يسوءكم . .

خرجت من عند خليفة يعطى الفقراء . . ويمنع الشعراء . . وإنى عليه لراضٍ . . !

* * *

وبعد . .

لقد أتى الشاعر جرير الخليفة عمرا - رضى الله عنه - ليرقوه بشعره . . كما كان يرقو غيره بشعره . . فيمنحه ويعطيه . . وكان ذلك هدف كل شاعر متكسب يتوسل بمديحه إلى الخلفاء والحكام . . ولا هدف له من هذا المديح سوى الاستجداء والاستمناح . . سواء منهم من لم يصرّح بهذا الهدف مكتفيًا بدلالة حاله من وقوفه موقف المادح المتضرع . . أو من صرّح بهدفه فى شعره وهو المال . . كما فعل جرير مع عمر . . وكما كان يفعل مع غيره من السادة الممدوحين . .

وقد رأينا أن نسوق هذا الموقف الذى كان بطله الشعراء والسلطة وكيف أن عمر بن العزيز ـ وهو فى قمة السلطة ـ لم ينخدع بكثرة الشعراء فى بابه . . كما نلاحظ أيضًا ثقافته الشعرية . . حتى إنه حاسب كل شاعر من خلال شعره . . فإن كان كاذبًا منافقًا خارجًا على الدين والقيم . . فلا حاجة له به . .

* * *

ويبدو أن علاقة الشعراء بالسلطة لم تكن على وتيرة واحدة . . كما أن السلطة نفسها كانت تتمثل فى أشكال عدة . . واختلافات كثيرة . . فمن أهل السلطة من كان على شاكلة عمر بن عبد العزيز ـ وهم قلة ـ ومنهم من كان فى الطرف الآخر . . تغلب أهواؤه على ضميره العادل . . وأحسب أن استقراء هذه العلاقة الشائكة بين الشعراء والسلطة سيقف بنا على نتائج مختلفة أيضًا . . فقد تلعب الظروف السياسية والاجتماعية دورًا فى تشكيل هذه العلاقة . . بالإضافة إلى التركيب النفسى الذى يتسم به الشاعر . . وكذلك يتسم به صاحب السلطة . .

ومن ثم رأينا أن نخوض هذا المعترك فى عدة دوائر هى :

ـ مفهوم السلطة والسلطان .

ـ مديح الشعراء للسلطة وظاهرة التكسب .

ـ سلطة الشاعر

ـ الهجاء السياسى والاجتماعى : العصور الأولى .

- الهجاء السياسى والاجتماعى : العصر الحديث .

- حرية التعبير بين الماضى والحاضر . .

وهى كما نرى ساحات متسعة المدى . . سنحاول أن نمسك بخيوطها بما منحنا الله من قدرة . . لعلنا نصل إلى نتائج محددة فى هذا الموضوع .

والله الموفق .

أحمد سويلم

فى مفهوم السلطة والسلطان

تكاد المعاجم والموسوعات تجمع على أن السُلطة هو الاسم المشتق من سَلّط . . فيقال :

سلّطه الله فتسلّط عليهم . .

والسلاطة هى القهر . .

والسلطان يعنى قدرة الملك وقدرة من جُعل ذلك له !

وقد يأتى السلطان على معنييْن : أحدهما : أن يكون سمى سلطانا لتسليطه على الناس . . والآخر : أن يكون حجة من حجج الله !

وفى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ ما يوضح المعنى . . وكذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ .

السلطان إذن هو رمز السلطة . . فهو الحاكم المسيطر أو القوى المتحكم . . والسلطة بهذا المعنى هو موضوعنا هنا . .

فقد نجدها فى قمة الدولة فى الحكم السياسى . . سواء سمى سلطانا أو ملكا . . أو حاكما . . أو أميرًا . . أو رئيسا . . أو شيخ قبيلة . .

ونجدها فى المستوى الأقل قليلا فى الوزراء والقواد والحاشية . .

ونجدها فى الولاة الذين يتولون ولايات بعيدة أو قريبة من مركز الحكم الرئيس . .

ونجدها فى القضاة وأصحاب السلطة التشريعية . .

ونجدها فى رجال الدين لنطلق عليها أحيانا السلطة الدينية .

ونجدها فى الشرطة . . والجيش فى الرتب العسكرية المختلفة .

ونجدها فى العمل فى وظائفه المختلفة .

ونجدها أيضا فى البيت حيث يتولاها الأب أو الأم . .

وكل ذلك وما شابه ينطبق عليه مفهوم السلطة التى تعنى السيطرة بالرأى والحكم والجزاء والعقاب . . .

وربما كان المجتمع العربى منذ كان . . يخضع لسلطان القبائل . . حيث يكون رئيس القبيلة أو شيخها هو الحاكم المسيطر . . ولهذا نشأت العصبية القبلية فى العصر الجاهلى حينما فاخر الشعراء بقبائلهم . . واشتعلت الحروب من أجل أتفه الأسباب تأسيسا على قدرة القبيلة على السيطرة والتسلط .

ويبدو أن شغف العربى بالاشتقاق اللغوى جعل لقب السلطان من أشهر الألقاب شيوعا بين رؤساء الدول الإسلامية والعربية . منذ القرن الرابع الميلادى . .

ويفسر بعضهم لفظ «السلطان» بأنه من أصل سُريانى أو آرامى

بمعنى الملك أو الحاكم أو الوالى . . وجمعه سلاطين . . ومؤنثه سلطانة . . أما السلطنة فهى الدولة التى يرؤسها سلطان .

وقد استخدم لفظ «سلطان» فى العصر الإسلامى الأول بما يفيد معنى القوة والسيطرة التى تتمثل فى صاحب الحكم . . ثم بمعنى ولى الأمر نفسه . . سواء أكان صاحب حكم فى الشئون المدنية أم الشئون الشرعية . . فكان يطلق مثلا على الخزانة العامة : بيت مال السلطان . . كما أطلق لقبا على القاضى . .

ويذكر صاحب صبح الأعشى فى الإشارة إلى نشأة هذا اللقب قوله :

(كانوا يطلقونه على الحاكم من حيث هو . . وحتى على القاضى فيقولون فيمن ليس لها ولىّ خاص يزوجها السلطان!) .

بل إن لقب السلطان قد امتدّ ليشمل أماكن كثيرة ودولا شتى أخرى . . وأزمنة مختلفة . . وذلك اقترابا من المعنى الذى ينطوى عليه اللقب مثل سلاطين الهند بعد أن فتحها الغزنويون . . وسلاطين مصر وممالك أفريقيا . .

وأضيف إلى اللقب صفات أخرى فى أزمنة مختلفة . . فعرفنا مثلا : السلطان الأعظم . . والسلطان المعظم . . وسلطان الإسلام والمسلمين . . وسلطان العرب والعجم والترك . .

ومن ألقاب وزراء الخليفة عرفنا : سلطان الدولة . .

ومن ألقاب الفقهاء عرفنا : سلطان العلماء .

ومن ألقاب المتصوفة عرفنا : سلطان العاشقين . . وهكذا!

نخلص من هذا . . أن السلطة فوقية دائما بدرجات متفاوتة . . وتملك السيطرة والأمر والنهى والحساب والعقاب والثواب . . بل قد تملك منح الحياة والموت . . بما تقضى به على الرعية . .

ولابد أن التطور السياسى والاجتماعى قد أوجد مظاهر أخرى للسلطة مادية ومعنوية، حيث تعددت وجوهها فى مجالات الحياة المتعددة . . حتى اعتدنا الآن أن نطلق ـ مجازا ـ على الصحافة : السلطة الرابعة .

كما أننا يمكننا أن نضع أيضا الثقافة المعاصرة فى دائرة السلطة . . فنقول السلطة الثقافية باعتبار أن لها كيانا خاصا فى المجتمعات المعاصرة .

وفى السياق نفسه يمكن إلصاق السلطة بالإعلام . . وبالمعلمين . . وغير ذلك من الكيانات المستحدثة . . بل يمكن أن نلصقها بالشعراء أنفسهم كما سوف نرى .

وكان لابد للرعية ـ فى كل زمان أن تتخذ مواقف مختلفة متباينة مع السلطة . . فقد نجد الرعية تكن للسلطة حبا وطاعة . . وقد نجدها تكن عداء وعصيانا . . ونجدها أحيانا مساندة بالحق أو منافقة مماثلة بالزيف والخداع . .

ويبدو أن هذه المواقف فى ألوانها المختلفة لا يفلت منها زمان ولا تخرج عنها علاقة مع أية سلطة . . لكنها مواقف يفلح التاريخ أحيانا فى تسجيلها . . ويخفق كثيرا فى ذكرها . .

لكن أظهر هذه العلاقات المدونة . . تلك التى كان الشعراء طرفا فيها . فالشعر أبرز خطوط التاريخ وأقواها وأكثرها تحديدا وصدقا . .

وتلك العلاقة - على قوتها وأهميتها - تسقط من النظر شعراء كثيرين . . وترفع بعضهم إلى مكانة أعلى . . والفيصل فى هذا أو ذاك . . هو الموقف الذى يتخذه الشاعر . . وما يختفى وراءه من دوافع وبواعث . .

ولا يجوز لنا أن نحاسب الشاعر وحده على موقفه من السلطة إن سلبا أو إيجابا . . وإنما ينبغى أيضا أن نستظهر موقف السلطة من الشعراء ومدى استجابتهم . . كما علينا أن نضع ذلك فى ظل زمانه وظروفه الخاصة .

وربما يؤثر موقف السلطة على ما يبدعه الشاعر . . فالسلطة غالبا ما تمسك فى يدها خيوطا يمكنها أن تتحكم بها فى ألسنة الشعراء . . فيسود أحيانا المديح والنفاق والتكسب . . وأحيانا أخرى نجد الهجاء السياسى عالى النبرة . . وتارة يتحول المديح الشخصى إلى تفاخر بالأنساب والإنجازات والأمجاد . . وتارة أخرى يصبح الشاعر لسان النقد الصادق . . كما أنه فى عصور القهر قد تتعدد ألوان التعبير فيلجأ الشاعر إلى التحايل . . أو الحيل الفنية حتى لا يحاسب على صراحته وصدقه . .

السلطة إذن شريكة فاعلة فى تحديد موقف الشعراء منها . .

غير أننا - بالرغم من ذلك - نظل نكبر فى الشاعر موقفه الخاص

الصادق لو هو ظل ملتزما هذا الصدق دون خوف أو نفاق أو تردد . .
وبالطبع ننتظر له مقاومة ودفعا عن هذا الموقف . .

وبقدر تمسك الشاعر بموقفه . . بقدر ما يسجل له التاريخ شجاعته وعزته وقدرته على التضحية بكل أطماع ومباهج الحياة الزائفة من أجل الكلمة والموقف . .

مديح الشعراء
وظاهـرة التكسـب

أحس الإنســان منذ وجــد على وجــه الأرض بتلك الفــوارق الاجتماعية بينه وبين أخيه الإنسان . . كما شعر باختلاف المواهب والقدرات والقيم بين البشر . . ورأى الحظوظ والأقدار ترفع هذا . . وتحطّ من ذاك . . وتعطى هذا . . وتمسك عن ذاك . . لذلك وجـدناه يسعى سعيا حثيثا إلى إرضاء من يرتفع عنه درجة فى سلم المجتمع . . إما بالمديح وإظهار الاحترام والتودد . . أو بمجانبته حتى لا يقع تحت سطوته وعقابه .

وسـواء أكـان المديح صـادرا عن قـرارة صدقـه . . أم تعلق بأطراف لسانه . . فهو فى هذا وذاك يقر بالرياسة والزعامة والسلطة لهذا الذى يوجه إليه مديحه .

ويؤكد ابن رشيق فى كتابه «العمدة» أن العرب أفضل الأمم لفضل اللسان عن اليد . .

ويذكر أن كلام العرب نوعان : منظوم ومنثور . . وقد كان الكلام كله نثرا فـاحتـاجت العـرب إلى الغناء بمكارم أخلاقهـا . . وطيب

أعراقها . . وذكر أيامها الصالحة . . وفرسانها الأنجاد . . وسمحائها الأجواد . . فتوهموا أعاريض جعلوها موازين للكلام . .

فلما تم لهم وزنه سموه شعرا لأنهم شعروا به ، أى : فطنوا!

ولسنا على معرفة يقينية بكيفية المديح عند الإنسان الأول . . فقد غابت جذوره مع ظلمات التاريخ . . وبقى شىء يسير فوق الجدران والأحجار القديمة . . يشيد بالملوك والقواد ويمنحهم صفات وألقابا كبيرة مختلفة . . لا تختلف عباراتها من حضارة إلى أخرى . . حيث تتشابه جميعها فى إعلاء شأن السلطة والتحدث عن قوتها وسطوتها وعلمها وذكائها . . حتى ولو لم يكن ذلك كله من صفاتها . .

وفى الأدب المصرى القديم نقرأ شكاوى الفلاح الفصيح قوله :

[يا سيدى . . يا عظيم العظماء . . يا أغنى الأغنياء . . ومن ليس فوقه إلا عظيم أعظم . . وغنى أغنى . . إن لسانك لسان الميزان . . وقلبك وشفتيك ذراعاه . .]

ونجد مثالا لذلك فى الآداب الفارسية واليونانية القديمة وغيرها .

فإذا طرقنا باب المجتمع العربى . . فنحن أمام أمة عرفت بلسانها وأدبها . . واشتهرت بشعرائها الذين سجلوا حوادثها وتاريخها وأيامها أصدق تسجيل . .

إرهاصات أولى:

عن طريق الشعر قرأنا التاريخ العربى . . حيث سجل أحداثه

ومعاركه وأيامه . . ورأينا الشعراء يواكبون هذه المواقف فيصفون حينا . . ويمدحون أبطالهم وزعماءهم حينا آخر . . ويرثون قتلاهم تارة . . ويطالبون بالثأر تارة أخرى .

وظهرت على أثر ذلك تلك العصبيات القبلية التى قد ترفع قبيلة وتحط من أخرى .

ويظل الشعر الجاهلى يضع المديح السياسى أو القبلى فى مقدمة أغراضه . . وبالتالى عاش كثير من الشعراء على مقربة من الأمراء والحكام يمدحونهم . . ويتلقون عطاياهم وجوائزهم . .

وحينما ظهر الإسلام نشأ شعر دينى إسلامى فى المديح يشيد بالرسالة والرسول . . ويدعو إلى الخلق الكريم . . ونبذ تلك العصبية القبلية التى سادت العصر الجاهلى .

وحينما بدأ العصر الأموى فى الشام . . واندلعت الخلافات السياسية وتأجج نارها . . عاد المجتمع العربى إلى سيرته الأولى ونزعته القبلية وعصبيته الجاهلية . . وثارت الحروب المذهبية والسياسية . . وانطلق الشعراء إلى الساحة ينتمون إلى المذاهب والأحزاب . . فاتسعت رقعة الهجاء السياسى والاجتماعى والدينى . . وحرص الولاة والحكام على جذب الشعراء المداحين بالمال والعطايا .

ويبدأ العصر العباسى لينقل المديح إلى ساحة أخرى أكثر اتساعا وتنوعا . . ونلاحظ أن العصر العباسى قد أوجد طبقة اجتماعية ثرية ناعمة مترفة . . وطبقة أخرى بائسة ـ كان منها الشعراء ـ ومن ثم تطلع

كل شاعر إلى مجالسة ومسامرة الطبقة الناعمة بما ينظمه من مبالغات وأكاذيب لعله يحظى من ممدوحه بالقرب والعطاء . .

وحينما تفرقت الدول الإسلامية إلى دويلات وإمارات . . تنافس الشعراء فى الوصول إلى الحكام والولاة حتى لو استدعى الأمر السفر والانتقال . .

وتتوالى العصور العربية ويظل المديح غرضا أساسيا من أغراضه . . بل وجدناه فى بعض العصور يسقط فى التكرار واستعادة المعانى القديمة . . والحاكم سعيد بما يسمع . . وحسبه قصيدة تخلده وتجرى على الألسنة . . ويشهد بها الزمان مهما امتد وتوالى . .

* * *

كان الشعر إذن هو وسيلة الإعلام الوحيدة فى المجتمع العربى - كما كان الشاعر - غالبا - أحد أعضاء مجلس القبيلة . . يعرف أخبارها . . ويلتزم مصلحتها . . ويفاخر بها . . ويهجو أعداءها .

وكان مديح الشاعر أيضا فى خدمة القبيلة بمعنى أنه يمكن أن يكون فى سبيل اجتلاب نفع يعود عليها أو على حلفائها . . وقد يكون شكرا على معروف أسدى إليها أو إلى حلفائها . .

نخلص من ذلك أن العصبية القبلية كانت تشد الشعراء إلى قيودها المحكمة . . كما أن الشعراء قد يفلتون من هذا الإسار طمعا فى مكاسب أخرى . . كما حدث حينما لجأ الشعراء إلى ملوك إمارتى الحيرة فى العراق . . والغساسنة فى الشام . . فقد كان أمراء الحيرة

يفتحون أبوابهم لشعراء عرب الجزيرة ينفحونهم المال الكثير لقاء ما ينشدون فيهم من مدائح تصل إلى بدو الجزيرة . .

أما الغساسنة فقد كانوا ـ بحكم موقعهم ـ أقرب إلى ثقافات اليونان والرومان . . وكانت قصورهم تتميز بالترف واللهو والخمر والقيان . . وكثيرا ما رحبوا بقدوم شعراء العرب ليحسنوا إليهم . .

ومن ثمَّ تعلّق الشعراء بظاهرة الكسب الخالص متمتعين بطيب العيش بجوار هؤلاء الملوك والحكام .

ويرى بعض المؤرخين والنقاد أن بزوغ ظاهرة التكسب بالشعر كان أمرًا طبيعيا . . استلزمته البيئة والظروف فى الحياة الجاهلية . . حيث تميزت بالفقر والصراع من أجل أسباب العيش . . والقحط الذى ساد الطبيعة . . وقد وجد الشاعر سبيلا إلى الحياة ـ أولا ـ فى ظل قبيلته . . حتى إذا ضاقت به سبل العيش تلمّس لعيشه وذاته سبيلا خارج دائرة القبيلة . . فيتحول الشاعر حيث يكون العطاء الجزيل . .

شعراء المديح: الريادة والاتباع:

يجمع أكثر مؤرخى الأدب العربى على أن **النابغة الذبيانى** أول من بحث عن السلطة فى قوتها وعظمتها . . وسيّر شعره مادحا مبالغا بهدف الكسب والعطاء .

وبالرغم من أنه كان عظيما فى قبيلته . . فإنه ينسب إليه أنه أول شاعر تكسب بشعره فكثر ماله . . ولقب بشاعر البلاط . . حيث تردد

على قصور الملوك فى العراق والشام ومدحهم وحصل على جوائزهم . .

والغريب فى الأمر أن النابغة كانت تقام له قبة من أدَم فى سوق عكاظ ويأتيه الشعراء يعرضون عليه أشعارهم فيحكم لأفضلهم بالجائزة التى تقدمها قريش أو الغساسنة .

ولابد أن اختياره لهذا المنصب دليل على ما كان يتمتع به من مقام رفيع . . وعلى ملكة النقد المتأصلة فيه وحسن تذوقه للشعر . . كما أن الكثيرين قد شهدوا له بأنه أشعر الشعراء فهذا ابن رشيق يقول عنه : إن شعره كان نظيفا من العيوب لأنه قال كبيرا ومات عن قرب ولم يُهتر - أى أنه لم يخرف ولم يضعف عقله -!

ولنا أن نسأل - بعد هذا كله - لماذا لجأ النابغة إلى مراءاة السلطة من أجل التكسب؟ ويفسر لنا بعض النقاد هذا المسلك . . فلا يعيبونه عليه - فقد كان سيدا من سادات قبيلته يرجعون إليه فى خطوبهم فيلبيهم . لكنه لم يسْلم من حَسَد بنى قومه لعفّته وشرفه . . فنالوا منه بألسنتهم . . فضاق بذلك وفضل أن ينطلق إلى الملوك فى الحيرة والشام . .

ويروى صاحب الأغانى أنه حظى لدى النعمان بن المنذر بمكانة كبيرة . . فقربه إليه دون سائر الشعراء . . وجعله من حاشيته ينادمه ويؤاكله فى آنية من الفضة أو الذهب .

لكن النابغة هرب من بلاط النعمان . . وسبب هروبه أنه كان هو والمنخّل اليشكُرى جالسيْن عنده . . وكان النعمان دميما أبرش قبيح

الوجه والمنظر . . وكان المنخل من أجمل العرب . . وكان النابغة متهما فى المتجردة زوجة النعمان . . ويوما قال له النعمان . صف المتجردة يا أبا أمامة . . فقال النابغة قصيدة وصف فيها بطنها وروادفها وفرجها . . فلحقت المتنخل من ذلك غيْره . . فقال للملك : ما يستطيع أن يقول هذا الشعر إلا من جرّبه . . فوقر ذلك فى نفس النعمان . . وبلغ النابغة . . فخاف بطشه . . وهرب إلى الغساسنة . .

وما يهمنا فى هذا الخبر أن النعمان كان دميما أبرش قبيح الوجه والمنظر . . وبالرغم من ذلك يصفه النابغة بقوله :

وأنت ربيعٌ يُنْعشُ الناسَ سيْبُه

وسيفٌ أعيرَتْهُ المنيةُ قاطعُ

أو يقول :

فإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ

إذا طَلَعَتْ لم يبدُ منهنّ كوكبُ

بل نرى النابغة يجعل نفسه فى مرتبة دنيا حقيرة حين يقول :

فلا تتركنّى بالوعيد . . كأننى

إلى الناس مطلىّ به القارُ أجربُ

فأيهما بالله قبيح ذميم . . هو أم النعمان؟ . .

الأمر الآخر الذى يهمنا فى هذا الخبر أنه هرب من النعمان إلى بنى غسان ليقول لهم :

أحــلامُ عــاد وأجــســاد مطهــرة

من المعــقّــة والآفــات والإثـم

هـم المـلـوك وأبـنـاءُ المـلـوك لـهـم

فضل على الناس فى الآواء والنعم[1]

ولا نكاد نجد جديدًا فى أسلوب النفاق والتقرب والمديح . . حيال رحيل النابغة من سلطة إلى أخرى . .

ويعلق ابن رشيق أيضًا على ذلك بقوله :

ـ مـدح النابغـة الملوك . . وقـبل الصلة على الشـعـر . . وخـضع للنعـمـان بن المنذر . . وكـان قـادراً على الامـتناع منه بمن حـولـه من عشيـرته . . أو من سار إليه من ملوك غسان . . فسقطت منزلته . . وتكسب مـالاً جـسيـمًـا حتى كـان أكله وشـربه فى صـحـاف الذهب والفضة وأوانيها من عطاء الملوك . .

ونلاحظ هنا دقـة التعبيـر لدى ابن رشيق فى قـولـه . . وكـان قـادراً على الامتناع منه . . مما يدلنا على معنى خفى قوامه أن ذلك كان يمثل له إغراء شديدًا برغم رفعة مكانته فى قومه . .

ومن ثم كان النابغة رائدًا فى الوقوف على باب السلطة . . حتى إن أخبـاره بعد ذلك تحكى أنه أخذ يستعطف النعمـان بعد هذه القطيعـة ليرضى عنه ويدعوه مرة أخرى إلى بلاطه حتى قبل اعتذاره . . وهذا ما أشار إليه بأسى ابن رشيق . .

---

(١) أحلام عاد : ثمانية من العمالقة . . وهو من الحلم : العقل ـ المعقة : العقوق ـ الإثم : الآثام ـ الآواء : المشقة والشدة .

ويسأل عمرو بن العلاء فى ذلك فقيل له : أمن مخافته امتدح النعمان وأتاه بعد هربه . . أم لغير ذلك؟

فأجاب : لا لعمر الله . . لا لمخافته فعل . . إذ كان آمنًا . . وما كانت عشيرته لتسلمه ـ أى تتركه ـ ولكنه رغب فى عطاياه ونوقه العصافير !

وكأننا بالنعمان قد سن تلك السنة التى جرى عليها الشعراء فيما بعد . . ووجدوها ساحة يجولون فيها ويصولون ويريقون ماء الوجه والشعر أمام أبواب السلطة .

وإذا جاز للشاعر ـ فى مدحه ـ أن يعجب بالخلق الحميد والرأى السديد والشجاعة والإقدام والكرم . . فإن عليه أيضًا أن يعبر عن ذلك بصدق وشرف . . كما فعل امرؤ القيس أو المهلهل أو غيرهما . . حينما قالوا المديح عن حب عميق وشعور صادق واعتراف بالواقع . . فلم يتملقوا ولم يتزلفوا لأنهم لم يجعلوا الشعر مطية تحت أقدامهم . . ولم يتكسبوا به أو يحترفوا بمديحهم . .

ولقد رأى البعض فى النابغة ومن على شاكلته أنهم يمثلون أبواق الصحافة المأجورة والإعلام البذىء الذى ترخص فيه وتنحط الكلمة والقلم لكل من يجود أو يعطى أكثر . . أو يمنح المكاسب . . فترفع من قدره . . وتجعله فى مكانة أعلى مما يستحق . .

والسلطة لها وهجها العذب الذى لا يفلت منه أحد بسهولة . . يتبدل تحت ظلها البشر . . ويتلونون . . ولم يذكر التاريخ لأحد فى السلطة لم ينجذب إلى جاهها ووجاهتها إلا النادر القليل الزاهد . .

والسلطان لا يكون سلطانا بغير حاشية تنفخ فى جسده وعرشه . . وحبذا لو كان هذا النافخ شاعراً . . تبقى كلمته . . ويخلد تعبيره . . حتى إن بعض المؤرخين يرون أن من فضل الشعر أن الشاعر يخاطب الملك باسمه . . وينسبه إلى أمه . . ويخاطبه بالكاف . . كما يخاطب أقل السوقة . . فلا ينكر عليه ذلك . . بل يراه أوكد فى المدح . . وأعظم اشتهاراً للممدوح . . كما أن من فضائل الشعر أن الكذب - الذى اجتمع الناس على قبحه - حسن فيه - (هكذا!!) .

وكما فعل النابغة . . فعل **الأعشى** وإن كان انحطّ أكثر إلى درك المسألة والنفاق المشين . . فمدح كل من أعطى . . يرى فيه الحزم والحذر وصلة الرحم والشجاعة والجود والقوة الخارقة . . حتى إن بعض العلماء يقول عنه : إنه أول من سأل بشعره . !

وإذا كان النابغة سيد قبة فى سوق عكاظ . . فقد أطلق العرب على الأعشى : صنَّاجة العرب . . وذلك يؤيد ما ذكره صاحب الأغانى على لسان يونس النحوى عندما سئل : من أشعر الناس . . قال : امرؤ القيس إذا غضب . . والنابغة إذا رهب . . وزهير إذا رغب . . والأعشى إذا طرب . .

والأعشى من كبار شعراء الجاهلية . . بل يقف منافسًا للنابغة . . وقد طرق أغراض الشعر المختلفة . . وكانت العرب تتذاكر شعره . .

ويحكى عنه أنه كان يوافى سوق عكاظ كل سنة . . وكان المحلَّق الكلابى لا يلد له إلا الإناث . . وكان فقيراً . . فقالت امرأة المحلّق له : يا أبا كلاب ما يمنعك من التعرض لهذا الشاعر - تقصد الأعشى - فما

رأيت أحدًا اقترب منه وقال فيه إلا نال خيرًا - تقصد أن من يقول فيه شعرًا يعرف عند الناس - قال لها زوجها: ما الذى تعنين يا امرأة.

قالت: لدينا بنات لا نقدر على رعايتهن..

قال المحلّق: ويحك يا امرأة.. ما عندى سوى ناقتى وعليها الحمْل..

قالت: الله يخلفها عليك..

قال: وماذا أفعل فى الشراب والكساء.

قالت: إن لدى ذخيرة منهما.. لا تخف..

فخرج المحلّق وتلقى الأعشى وهو داخل إلى سوق عكاظ قبل أن يسبقه إليه أحد فأخذ خطام ناقته.. فسأل الأعشى:

من هذا الذى أخذ خطامنا..؟

قال المحلّق: أنا المحلّق..

قال الأعشى: شريف كريم..

فنزل الأعشى.. ونحر المحلّق ناقته وكشط له عن سنامها وكبدها ثم سقاه وأحاطت به بناته يغمرنه ويمسحنه.. فقال الأعشى: ما هذه الجوارى حولى؟

قال المحلّق: هن بنات أخيك المحلّق.. هن ثمان شريدتهن قليلة..

فانطلق الأعشى إلى السوق حيث يجتمع الناس فأنشدهم:

لعمرى لقد لاحت عيونٌ كثيرة

إلى ضوء نارٍ باليفاع تُحرَّقُ

تشب لمقرورَيْن يصطليانها

وبات على النار الندى والمحلَّقُ

رضيعَىْ لبانٍ ثدى أمٍ تحالفا

بأسحم داجٍ عُوضُ لا تتفرقُ

فسلم عليه المحلَّق فقال له: مرحبًا يا سيدى بسيد قومه ونادى:

- يا معاشر العرب هل فيكم مذكار - أى الذى يلد الذكور - يزوج ابنه إلى الشريف الكريم.. فما قام الأعشى من مقعده وفيهن مخطوبة إلا وقد زوجها.

ويدل هذا الموقف على أن الأعشى لم يكن يعنيه سوى العطاء والتكسب..

ويحكى الأغانى أيضا أن الأعشى قصد كاهنًا مشعوذا يدعى عبهلة بن كعب العنْسى.. فامتدحه.. واستبطأ جائزته.. فقال له العنسى: ليس عندنا عينٌ ولكن نعطيك عرضًا فأعطاه خمسمائة مثقال دهنًا.. ومثلها حُللاً وعنبرا.. فلما مر الأعشى ببلاد بنى عامر خافهم على ما معه.. فأتى علقمة بن علاثة وطلب منه أن يجيره.. فقال له: قد أجرتك.. قال: من الجن والإنس؟

قال: نعم . . وقال: ومن الموت؟ . . قال: لا!

فتركه وأتى عامر بن الطفيل فقال له: أجرنى! . .

قال: أجرتك . . قال: من الجن والإنس؟ قال: نعم . . قال: من الموت . . قال: نعم . .

قال: وكيف تجيرنى من الموت؟

قال: إن مت وأنت فى جوارى بعثت إلى أهلك بالدية . .

فقال الأعشى: الآن علمت أنك قد أجرتنى من الموت!

فمدح الأعشى عامراً وهجا علقمة . . فقال علقمة: لو علمت الذى أراد كنت أعطيته إياه . .

وكان هجاؤه شديداً حيث جاء فيه:

تبيتون فى المشْتى مِلاءً بطونكم

وجاراتكم غَرْثَى يبتْنَ خمائصا

وللأعشى رواية ندرك فيها ضعفه أمام العطاء أكثر وضوحًا يرويها هشام بن القاسم الغنوىّ وكان علاّمة بأمر الأعشى ووردت فى مراجع كثيرة . .

وتقول الرواية: إن الأعشى وفد إلى النبى - ﷺ - ومدحه بقصيدة يقول فيها:

ألم تغتمضْ عيناك ليلة أرمدًا

وعادك ما عاد السليم المسَهَّدا

ومـا ذاك من عـشق النسـاء وإنما

تناسـيت قـبل اليـوم خُلّة مُـهْـدَدا

(ومُهْدَد: هى امرأة كان يعشقها الأعشى).

ثم يقول:

نبيّ يرى مـا لا ترون.. وذكـره

أغـار لعـمـرى فى البـلاد وأنجـدا

مـتى مـا تـناخى عند باب ابن هاشم

تُراحى وتَلْقَى من فـواضله يدا..

فلما سمعت قريش بذلك رصدوا الأعشى وقالوا: هذا صناجة العرب ما مدح أحدًا قط إلا رفع قدره..

فلما اقترب منهم قالوا له: أين كنت يا أبا البصير؟

قال: أردت صاحبكم هذا لأسلم..

قالوا: إنه ينهاك عن خلال ويحرمها عليك وكلها بك رافق ولك موافق..

قال وما هنّ..

قال أبو سفيان: الزنا..

قال الأعشى: لقد تركنى الزنا وما تركته.. ثم ماذا؟

قالوا: القمار..

قال الأعشى : لعلى إن لقيته أن أصيب منه عوضًا من القمار . . ثم ماذا؟

قالوا : الربا . .

قال : ما دنت ولا ادّنتُ . . ثم ماذا؟

قالوا : الخمر . .

قال : أوَّهْ . . أرجع إلى صُبابة قد بقيت لى فأشربها .

فقال أبو سفيان : فهل لك فى خير مما هممت به؟

قال : وما ذاك؟

قال : نحن ومحمد الآن فى هدنة . . فتأخذ مائة من الإبل وتعود إلى بلدك سنتك هذه . . وتنظر ما يصير إليه أمرنا . . فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفًا . . وإن ظهر هو علينا فلك أن تذهب إليه . .

فرد الأعشى بعد تفكير : ما أكره هذا . .

فنادى أبو سفيان :

يا معشر قريش هذا الأعشى والله لئن أتى محمدًا واتبعه ليضْرِمَنَّ عليكم نيران العرب بشعره . . فاجمعوا له مائة من الإبل . .

ففعلوا . . فأخذها وانطلق إلى بلده . . فلما كان بقرية منفوحة باليمامة ألقى به بعيره فقتله !

هكذا يستسلم الأعشى لإغراء العطاء حتى لو كان ذلك على حساب ما يعتقده وما يصدق فى وجدانه . . ولابد أنه رأى فى سلطة المشركين ما لم يره فى سلطة المسلمين الفقراء .

أما **زهير بن أبى سلمى** فقد تكسب بالشعر يسيرًا مع هرم بن سنان . . وكان زهير أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء : أمرؤ القيس - وزهير - والنابغة . . وقد وصفه عمر بن الخطاب بأنه أشعر الشعراء لأنه كان لا يعاظل (يعقّد) فى الكلام . . وكان يتجنب حوشىّ الشعر . . ولم يمدح أحدًا إلا بما فيه . .

وكان عمر قد سأل ابنة زهير : ما فعلت حُلل هرم بن سنان التى كساها أباك؟

فقالت : أبلاها الدهر . .

قال : لكن ما كساه أبوك هرمًا لم يبله الدهر . . !

وقال عمر كذلك لبعض ولد هرم بن سنان : أنشدنى ما قال فيكم زهير . . فأنشده قوله :

قوم أبوهم سنانٌ حين تنسبهم
طابوا وطاب من الأولاد ما وَلَدُوا

مُحسَّدون على ما كان من نعمٍ
لا ينزعُ الله منهم ما به حُسِدُوا

فقال عمر : لقد كان يقول فيكم ويحسن . .

قال : يا أمير المؤمنين . . إنا كنا نعطيه فنجزل . .

قال عمر : ذهب ما أعطيتموه . . وبقى ما أعطاكم . .

وتلك شهادة صدق لزهير وعفة نفسه . . وأنه لم يمدح أحدًا إلا بما

فيه ويكفى هذا المعنى : كان يقول فيكم ويحسن - ولم يقل : كان يبالغ أو ينافق أو يذكر ما لا يراه مثل غيره . .

وأحسب أن أحدًا لم يختلف على زهير فى مدائحه . . وأنه كان حكيمًا صادقًا ومن يقرأ معلقته يجد هذا واضحًا فى أبياتها . .

ولا نريد أن نطوف بكل الشعراء المداحين . . وإنما قصدنا أن نتوقف عند علامات بعينها خاصة تلك التى فقع لونها فى أساليب الاستجداء والنفاق للسلطة .

وها نحن نمضى قليلاً خلال هذه المدرسة . . ونقف مع **الحطيئة** الذى كان أكثر الشعراء سؤالاً بالشعر . . وانحطاط الهمة فيه . . والإلحاف والإلحاح ومن ذلك مثلاً قوله فى عمرو بن عامر الثقفى :

يعيش الندى ما عاش عمرو بن عامرٍ

وولى الندى إن نفسُ عمرٍو تولَّتِ

حليف الندى لما تولى خلا الندى

فماتت عطايا المكثرين . . وقلّتِ

توارى الندى لما توارت عظامُـــه

فأعظم بها فى المعتفين . . وجلّتِ

فلولا بقـــايا من بنيـــه ورهطه

لهانت وجوه من ثقيف وزلّتِ

ويذكر الأغانى أن الحطيئة كان جشعًا سئولاً ملحفًا دنىء النفس . .

كثير الشر . . قليل الخير بخيلاً . . قبيح المنظر . . مغموز النسب . . فاسد الدين .

وكان الحطيئة قد قدم المدينة . . وكانت قريش قد أرصدت له العطايا والناس فى سنة مجدبة . . فمشى أشراف أهل المدينة بعضهم إلى بعض يقولون : قد قدم علينا هذا الرجل ، وسوف يأتى لأحد أشرافكم يسأله فإن أعطاه جهد نفسه وكلفها فوق طاقتها . . وإن حرمه هجاه . .

فاجتمع رأيهم على أن يجعلوا له عطاء يجمعونه فيما بينهم له حتى جمعوا له من أهل البيت والأنصار أربعمائة دينار . . وظنوا أنهم بذلك قد أغنوه . . فأتوه فقالوا له : هذه صلة آل فلان وآل فلان . . فأخذها وظنوا أنهم قد كفوه عن المسألة . . فإذا هو يوم الجمعة قد استقبل الإمام معترضًا إياه ينادى : من يحملنى على بغلين وقاه الله كبة جهنم !

وعن الأصمعى أنه روى شعراً حسنًا للحطيئة ثم قال : أفسد مثل هذا الشعر الحسن بهجاء الناس وكثرة الطمع . .

ومر بنا كيف جمع المشركون عطاء للأعشى حتى يترك محمداً ـ ﷺ ـ كما فعل أهل المدينة مع الحطيئة . .

والحطيئة من الشعراء الأفذاذ فى التراث العربى وله بيت من الشعر يبذ كثيراً من قصائد الشعراء الكبار هو :

من يفعل الخير لا يعْدَم جوازيه
لا يذهب العرفُ بين الله والناس

ولابد لنا أن نصرح هنا بحيرتنا أمام تلك المواقف التى ترفع من الشاعر آنا . . وتحط به آنا آخر . . فيبدو تلونه وأقنعته . . ويختلط لديه الصدق بالكذب . . والرفعة بالانحطاط . . والقوة بالضعف . .

فإذا كان السؤال بالشعر قد اتخذه الشاعر سبيلاً للحصول على قوته ومعايشه فلماذا إذن يهدد الناس بشعره ويخيفهم بلسانه . . ويتقرب إلى السلطة بنفاقه . . بل ويطمع فى المزيد من العطاء . . ويبث شجونه وآلامه وفقره على مسامع السلطة . . والغريب فى الأمر أن الشعراء المداحين قد أهدروا طاقتهم ومواهبهم فى هذا الشعر الذى قد يسىء إليهم فى معرض النقد أو تحديد المكانة الإنسانية والمواقف التى تحسب للشاعر . .

بل وجدنا كثيراً من المؤرخين أمام انتشار هذا اللون يصنفون الشعراء درجات وطبقات . . وكأن المديح أمر غير مذموم فى كل أشكاله وألوانه . . بل وجدنا من النقاد من يرسمون للشعراء كيف يمدحون السلطة . . إذ عليهم أن يراعوا اختلاف أحوال الممدوح من الارتفاع والاتضداع . . والتبدى والتحضر . . واختلاف طوائف الممدوحين . . فمنهم الملوك والولاة والوزراء والقضاة . . فإذا مدح الشاعر ملكا فعليه أن يسلك طريق الإيضاح والإشادة . . وأن يجعل معانيه جزلة وألفاظه نقية غير مبتذلة ولا سوقية . . وعليه أن ينزع إلى الإيجاز لأن للملك سآمة وضجرا . . ربما عاب من أجلها ما لا يعاب وحرم من لا يريد حرمانه . . !

ويروى فى ذلك أن دخل الفرزدق على عبد الرحمن بن الحكم فقال له عبد الرحمن :

دعنى من شعرك الذى ليس يأتى آخره حتى ينسى أوله . . قل لى بيتين يعلقان بالرواة . . وأنا أعطيك عطية لم يعطها أحد قبلى . .

فقال الفرزدق :

وأنت ابن بطحاوى قريش وإن تشا

تكن من ثقيف سيل ذى خدر عمْرِ

وأنت ابن سوّار اليدين إلى العلا

تكفّت بك الشمس المضيئة بالبدْرِ

فاستحسن عبد الرحمن بن الحكم ذلك وأمر له بعشرة آلاف درهم . .

أما إذا مدح الشاعر وزيرًا أو كاتبًا . . فعليه بإبراز حسن سياسته وحزمه وجودة النظر للخليفة . . وسيرته المحمودة والبلاغة والعلم . .

أما القائد فيمدح بالنجدة والشجاعة والبسالة والسماحة . . وهكذا . .

وهذه الصفات المرسومة قد استمدها واستخلصها النقاد من واقع مدائح الشعراء لرجال السلطة . . ووجدوا كيف تستجيب السلطة وتسعد بها إن أقبل عليها شاعر ينثرها بين يديها . .

ويقول جورجى زيدان فى كتابه : تاريخ التمدن الإسلامى :

إن معاوية وسائر الخلفاء من بنى أمية من بعده . . قد استخدموا المال فى تأييد سلطانهم يصطنعون به الأحزاب ويستدنون الأعداء . . ويبذلونه للشعراء الوافدين . .

من أجل ذلك كان عمال الأمويين يجمعون المال بأية وسيلة حتى إنهم كانوا لا يسقطون الجزية عمن أسلم من أهل الذمة . . وكانوا يفرضون على الناس الضرائب الاستثنائية . . ويتفنن الولاة فى ذلك . . مما جعل الناس يضجون من هذا المسلك ويشكون إلى الحكام . .

إننا هنا لا نتعرض لهذا اللون الجميل الذى يبدو فى المديح فيشيد بمكارم الأخلاق ، فمثل ذلك غير مذموم إذا كان فى حدود المنطق الإنسانى . .

فإذا كان الخليفة يخوض الحرب بشجاعة . . ويعمل لصالح الناس . . فلا بأس من إظهار ذلك حتى لو بالغ الشاعر فيه قليلاً . . كما فعل الأخطل حينما وصف عبد الملك بن مروان بالشجاعة والإقدام . .

لكن الأمر يختلف إذا رأينا شاعراً كالفرزدق يصف الوليد بن عبد الملك بالبدر ويجعل أمه الشمس ويمتدح انتسابه إلى لؤى بن غالب فيقول :

تصعّد جدّ بالوليد إلى التى
أرى كل جدّ دونها يتصوَّب
أرى الثقلين الجن والإنس أصبحا
يمدان أعناقًا إليك تقربُ
وما منهما إلا يرجَّى كرامةً
بكفيك أو يخشى العقاب فيهربُ

ومـا دون كـفـيك انتـهـاء لـراغب

ولا لمناه مـن ورائك مـــــذهبُ

أو كقـولـه - متعصبًا لخـلافة بنى أمية لأنها الحـق السـماوى الذى لا رجعة فيه - موجهًا شعره لسليمان بن عبد الملك :

أنت الـذى نعت الكـتـــاب لـنا

فـى نـاطـق التـــــوراة والـزُبُـر

كـم كـــان مـن قس يخـــبّـــرنا

بخـــلافـــة المهـــدىّ أو حَـــبْــرِ

جـــعل الإله لنا خـــلافـــتـــه

بُرْءَ القـروح وعـصـمـةَ الجـبْـرِ

وهو قول شديد المبالغة والإيغال والنفاق

أو كقوله فى يزيد بن عبد الملك - ولهوه ومجونه معروف - :

ولو كـان بعـد المصطفى من عبـاده

نبىّ لهم منهـم لأمـــر العـــزائمِ

لكنت الـذى يخـتــاره الله بعــده

لحـمل الأمـانات الثـقـال العظائمِ

ورثتم خـليل الله كـل خــــزانة

وكل كـــتـــابٍ بالنبـــوة قـــائمِ

وأحسبنا لا نجد قمة نفاق وتعصب مشين فوق هذه القمة!

أما جرير فقد مدح عبد الملك بن مروان فاستجدى وتكسب على عادة القدماء فى مثل قوله:

أغـــثنى يـا فـــداء أبى وأمى

بسـيْب منك إنك ذو ارتيـاح

فـإنى قـد رأيت علىَّ حـقًّـا

زيارتىَ الخليـفـةَ وامـتـداحى

سـأشكر إن رددتَ علىّ ريشى

وأنبتّ القـوادم فى جناحى

ألسـتم خـيـر من ركب المطايا

وأندى العـالمين بطونَ راح

والغريب أن النقاد استحسنوا البيت الأخير ورأوا فيه أجمل ما قيل فى المدح لأنه رفع ممدوحه فوق العالم وجعله أجود الناس. .!

ولا نكاد نجد اختلافًا فى المعنى والمبالغة وجرير يمدح هشامًا ويطلب منه أيضًا إنقاذه من همومه كما طلب من عبد الملك كساءه وعطاءه:

تعـرضت الهـمـوم لنا فـقـالت

جـعـادة أىّ مـرتحل تريدُ

فـقلت لهـا الخليـفـةَ غـيـر شك
هو المهـــدىّ والحكَم الرشــيــدُ
وتبـــــــدأ منكـمُ نعـم عـلـينـا
وإن عـدنا فـمنعــمكم مـعــيـدُ
تزيدون الحـــيـــاة إلىَّ حـــبًــا
وذكــر من حـبـائبكم حـــمـيــدُ

هكذا نرى أن الحاجة كانت تسوق الشعراء سوقًا إلى باب السلطة لعلهم ينالون من عطائها ونعمها . . فإذا بلغوا ما أرادوا . . زادت الحياة إليهم حبا . . ! وفرحوا بالعطاء . . وأشادوا بها . . وجدَّدوا لها عهود الطاعة والولاء . .

وما أشد تباين هذا الموقف من جرير مع موقفه من عمر بن عبد العزيز الذى سقناه فى مدخل هذا الكتاب . . ولو كان الخليفة هناك قد رحب بالمديح والمبالغة لأدخل جميع الشعراء ببابه . . وغرق فى منافسة الشعراء فيما بينهم مديحًا ونفاقًا مما يؤكد هنا أن السلطة أيضًا تشكل الطرف السلبى فى هذه المواقف . . فإذا كان الحاكم واعيا بما يفعله الشعراء وبأن أكثر الشعر كذب - فى هذا المجال - أغلق بابه فى وجه المنافقين حتى لو كانت ألسنتهم مسنونة . . أو على أقل تقدير طلب إليهم أن ينشدوه شيئًا آخر غير المديح . . وأعطاهم عن طيب خاطر لقاء جودة إبداعهم . . كما يحدث فى مسابقات الشعراء وجودة قصائدهم . .

وحينما يتأمل بعض النقاد تلك الحال لدى الشعراء . . نجد أحدهم وقد تأسى لحال الشعر والشعراء فيقول :

كان الشاعر فى مبتدأ الأمر أرفع منزلة من الخطيب لحاجتهم إلى الشعر فى تخليد المآثر وشدة المعارضة وحماية العشيرة . . وتهيبهم عند شاعر غيرهم من القبائل . . فلا يقدم عليه خوفًا من شاعرهم على نفسه وقبليته . . فلما تكسبوا به وجعلوه طعمة . . وتولوا به الأعراض وتناولوها . . صارت الخطابة فوقه . . وعلى هذا المنهاج كانوا . . حتى فشت الضراعة وتطعموا أموال الناس . . وجشعوا فخشعوا . . واطمأنت بهم دار الذلة . . إلا من وقر نفسه وقارها . . وعرف لها مقدارها . . حتى قُبض نقى العرض . . مصون الوجه . . !

ويسوق لنا ابن رشيق تأكيدا لهذه النظرة خبر **ابن ميادة** حينما امتدح أبا جعفر المنصور بقوله :

فوجدتَ حين لقيتَ أيمن طائر

ووليت حين وليتَ بالإصلاحِ

وعفوت عن كسْر الجناح ولم يكن

لتطير ناهضةٌ بغير جناحِ

قوم إذا جُلب الثناء إليهمُ

بيع الثناء هناك بالأرباحِ

وكان قد أتاه راع بلبن فشرب ثم مسح على بطنه وقد عزم على الرحلة فقال : سبحان الله أأفد على أمير المؤمنين وهذه الشربة تكفينى . ! وصرف وجهه عن الرحيل إلى أبى جعفر المنصور لطلب العطاء وضرب بذلك المثل لكبر النفس وبعد الهمة .

ويروى أيضًا عن **جميل بن مَعْمَر** أنه ما مدح أحدًا قط إلا ذويه وقراباته . . وإنه صحب الوليد بن عبد الملك فى سفر فكلفه أن يرجز به . . وظن انه يمدحه فأنشأ يقول :

أنا جـميلٌ فى السَّنام من مَعَدّ

في الذروة العلياء والركن الأشدّ

فقال له الوليد : اركب لاحُملت!

أما **مروان بن حفصة** فقد أعلن الأنفة من عطاء غير الملوك بقوله :

ولقد حُبيتُ بألف ألف لم تكن

إلا بكفِّ خليفةٍ ووزيرِ

ما زلت آنف أن أؤلّف مدحة

إلا لصاحب منبرٍ وسريرِ

ما ضرنى حسدُ اللئام ولم يزل

ذو الفضل يحسده ذوو التقصيرِ

لقد كان واضحًا صريحًا فى موقفه أنه لا يمدح غير الخليفة والوزير . . والله أعلم بعد ذلك بمسار وأسلوب مديحه إن كان صدقا أو كذبا . .

غير أن الأمر اختلف قليلا فى **العصر العباسى** . .

صحيح . . سار الشعراء على نهج من سبقوهم فى استمالة السلطة ومنافقتها واستجدائها وطلب عطائها . . لكنهم زادوا

وتوسعوا فى معانى المديح وصوره بما يتلاءم مع الحضارة العباسية والحياة الاجتماعية ومواسم الخلافة والملك وأعياد البلاط ومناسبات الحرب والانتصارات . . بل أخذوا يصفون نظافة الخليفة وثيابه الجميلة وثراءه وتدينه واهتمامه بمصالح الرعية ونشر الأمن وغير ذلك .

وقد اختلف حس الشعراء إزاء ذلك فمنهم من صدق مع نفسه ومع السلطة ومنهم من نافق وبالغ . . وبين الطرفين كثير من الدرجات التى تميل إلى هذا أو إلى ذاك .

ويرى البعض أن **بشارًا** كان فى مقدمة الشعراء الذين طوروا فى نظرة الشعراء إلى الخلفاء والحكام . . فأضاف معانى الحب والإخلاص للشعب والخير للبلاد . .

ومع ذلك نرى أن بشارًا لم يخرج عن سيرة الشعراء فى عصره فى طلب العطاء . . بل من المعروف أن الخلفاء والولاة كانوا يخشون لسانه فيعطونه أكثر مما يطلب . . ومن ذلك انه وفد يومًا على خالد بن برمك وهو على فارس فأنشده :

أخالد لم أخبط إليك بذمة
سوى أننى عَاف وأنت جوادُ
أخالد إن الأجرَ والحمد حاجتى
فأيهما تأتى . . فأنت عمادُ
فإن تُعطنى أفرغْ عليك مدائحى
وإن تأب لم يُضرب علىّ سِدادُ

فدعا خالد بأربعة آلاف دينار فى أربعة أكياس . . فوضع واحدًا عن يمينه وواحدًا عن شماله وآخر بين يديه وآخر خلفه وقال: يا أبا معاذ هل استقل العماد . . فلمس بشار الأكياس وقال: استقل أيها الأمير . .

ومرة دخل على الهيثم بن معاوية وهو أمير البصرة فأنشده:

إن السلام أيها الأميرْ

عليك والرحمةَ والسرورْ

فسمعه يقول: ان هذا الأعمى لا يدعنا أو يأخذ من دراهمنا شيئًا . . فطمع بشار فيه . . فما برح حتى انصرف بجائزته . .

ويقول بشار فى الأمين:

ملك إذا علقتْ يداك بحبله

لا يقتضيه البؤس والإعدامُ

وإذا المطىّ بنا بلغن محمدًا

فظهورهنّ على الرجال حرامُ

إننا نرى هنا استجداء حقيقيًا ومبالغة واضحة . .

ومثله فعل **أبو نواس** حينما سمى الرشيد (أبا الأمناء) ورأى أن سياسته خير سياسة وفى ذلك يقول:

هارون ألّفنا أئتلافَ مودة

ماتت لها الأحقاد والأضغانُ

ملك تصــوَّر فى القلوب مـثــالهُ

فـكـأنمـا لـم يـخـلُ مـنـه مـكـانُ

ألفتْ منادمـةَ الدمـاء سـيـوفُـه

فلقلّمـــا تحـــتـــازُها الأجـــفـــانُ

ويقول أبو نواس أيضًا فى يحيى بن خالد:

سألت الندى هل أنت حرٌ فقال لا

ولكننى عـبـدٌ ليـحـيى بن خـالد

فـقلت شـراءً قـال: لا بل وراثةً

توارثـنى عـن والـد بـعـــــد والـد

ونلاحظ هنا المبالغة وقلب الحقائق. . فيجعل الندى عبداً لإنسان يتصرف فيه كيف يشاء. . ثم ها هو يشير إشارة واضحة للعطاء. . مما يدفع ممدوحه إلى تصديقه خاصة بعد أن يستمع إلى البيت الثانى الذى يجعل الكرم وراثة عن والد بعد والد. . فيجعل الممدوح يجود بخير ما عنده ليؤكد له ولجلسائه هذه الوراثة. . ونرى أبا نواس مرة أخرى ينهج النهج نفسه حينما يمدح الخصيب والى مصر ويقول:

فتى يشترى حسن الثناء بجوده

ويـعـلـم أن الـدائـرات تـدورُ

فـمـا جـازه جـودٌ ولا حلّ دونه

ولكن يصير الجودُ حيث يصيرُ

زها بالخصيب السيفُ والرمح فى الوغى

وفى السّلم يزهو منبرٌ وسريرُ

نحن إذن أمام شاعر لا يفوته استخدام مفردات ومعانى العطاء والجود والشراء وحسن الثناء . . مما يدلنا على أن هذا السلوك كان يرضى الممدوح ويصيبه بالغرور والعظمة . . ويجعله يحس أنه فوق البشر . . وحسبه أن شاعرًا ينظم فيه بيتًا واحدًا يسير على كل لسان . .

ثم نلتفت التفاتة صغيرة إلى **أبى العتاهية** فنراه يضع الخليفة المهدى فى مكانة لا يصلح إلا هو فيها :

أتتـه الخـلافـةُ منقـادةً

إليـه تجـرّرُ أذيالهـا

فـلـم تـك تـصـلـحُ إلا لـه

ولـم يك يـصلـح إلا لـهـا . .

هكذا بلغت المبالغة التى تغلق على الشاعر الباب إذا هو أراد أن يمدح خليفة آخر . . ونظن أن الشعراء فى ذلك العصر لم يعدموا اختلاق المعانى والمبالغات المستحيلة فى مدائحهم قربًا من السلطة وطمعا فى العطاء والجوائز :

وكما فعل بشار وأبو نواس وأبو العتاهية . . فعل مسلم بن الوليد

والبحترى وأبو تمام . . بحيث إن الشعراء كانوا يحرصون على تسجيل الأحـداث والمعـارك والإنجـازات فى قـالب المدح . . لكنهم مع ذلك يخفون قدراً كبيراً من الاستجداء ويظهرون قدراً كبيراً من المبالغة والغلو فى الوصف . .

ويحسن بنا الآن قبل أن ننتقل إلى مرحلة أخرى أن نشهد بجهد الشعراء العباسيين فى إزالة بقع المهانة فى ثوب المديح إلى حد ظاهر كبير . .

فقد مر المجتمع العربى بالعصر الأموى وقد تعددت فيه المذاهب السياسية التى كانت تدور حول السلطة وشرعيتها . . وظهرت قصيدة المديح السياسى المأجور . . وردد شعراء المذاهب ما يؤيد نظرة السلطة التى ينتمون إليها . . ويضفى عليها شرعية دون غيرها . .

فلما جاء العباسيون انفردوا بالسلطة وزعموا أنهم هم سلاطين الله فى الأرض وأنهم الورثة الشـرعيـون . . ولقى ذلك من الشـعـراء المتكسبين تأييداً حافلاً ما دام ذلك يرضى السلطة المتفردة . . فتسابقوا بالمديح والإشادة . .

وحينما كانت السلطة تمنع العطاء . . يلجأ الشاعر إما إلى الهجاء أو اللوم أو العتاب وإما يرحل بعيداً عن عين السلطة . .

ويروى فى ذلك أن **عطاء السّندى** وقف بباب أبى العباس . . وبنو هاشم يدخلون ويخرجون فقال :

إن الخـيـار من البـرية هاشمٌ

وبنو أمـيـة أرزلُ الأشـرارِ

وبنو أمــيــة عــودُهــم من خــرْوعٍ

ولهــاشم فى المجـد عــودُ نضــارِ

أمــا الـدعــاة إلى الجنان فــهــاشمٌ

وبنو أمـــيـــة . . من دعـــاة النار

وبهـاشـم زكت البـلاد وأعــشـبت

وبنو أمـيــة كــالســراب الجـارى

ونلاحظ أن الشاعر هنا استخدم فى تقربه سب بنى أمية . . والذى حدث أنه لم يؤذن له فى الدخول على أبى العباس ولم يصله أحد من بنى هاشم . . فولى وهو يقول :

يا ليت جـوْر بنى مـروان عــاد لنا

وأن عــدل بنى العـبــاس فى النار

هكذا انقلبت حـال الشاعـر تمامًـا . . وتبـدل وجهـه إلى ظهـره . . ومدحه إلى هجاء . . لماذا لأن أبا العباس لم يأذن له ولم يصله . .

ويجسّد أبو تمام إمساك الممدوح عن العطاء بقوله :

يحـــتـــــاج من يرتجى نوالكمُ

إلى ثـلاث بغــــيـــــر تكـذيبِ

فكـنـز قـــــــارون أن يكـون لـه

وعـــمـــر نوحٍ وصـــبـــر أيوبِ

والمعنى نفسه يقوله أبو نواس :

وعـــدتنى وعـــدك حـــتى إذا
أطمـــعـــتنى فى كنز قـــارون
جـــئت من الليل بغـــسّـــالة
تغـــسلُ مـــاً قلت بصـــابون

ويبــدو أن الصــدق والكذب كــان لهــمــا مـفـهـوم خــاص لدى الشعراء . . وأنهم فى مجال المدح لم يكونوا يتخذون المفهوم كما هو مباشراً . . وإنما اعتمدوا على تلك المقولة القديمة (أعذب الشعر أكذبه) وأكذبه هنا فى روعهم أى فيه الخيال والمبالغة والغلو . .

ومن ثم اختلف الشعراء فى مديحهم للسلطة . . ومهما كان هذا الاختلاف فإن شبهة الاستجداء تسرى فى قصائدهم بلا ريب . .

وما نعنيه هنا أن الشعراء كانوا يستهدفون بمديحهم من الكسب والعطاء والمنفعة بما يطابق مقتضى حال الممدوح . .

ولقد جمع الدكتور درويش الجندى أهم القضايا النقدية التى تدور حول مطابقة شعر المديح لمقتضى حال الممدوحين فى عدة نقاط نوجزها فيما يلى :

١ ـ الحذر من كل ما يؤذى السيد الممدوح . . من التشاؤم وذكر الموت أو كما يقول المرزبانى فى موشحه : ينبغى للشاعر أن يحترز فى أشعاره . . ومفتتح أقواله مما يتطير منه أو يستجفى من الكلام والمخاطبات كذكر البكاء ووصف الخطوب الحادثة . . فإن الكلام

إذا كان مؤسسًا على هذا المثال تطير منه سامعه . . ويتهم ابن رشيق من يقع فى ذلك بالغفلة وغلظ الطبع . .

٢ ـ حسن التخلص ولطافة الخروج إلى المديح مما يريح الممدوح . .

٣ ـ مراعاة حسن الخاتمة لأن ذلك أبقى فى السمع وألصق بالنفس لقرب العهد بها . . فإن حسنت حسن . . وإن قبحت قبح . .

٤ ـ المحافظة على النهج التقليدى للقصيدة . . وربط ذلك بالتكسب . . وبيان فائدته فى تحقيق غرض الشاعر وهدفه من المديح . .

٥ ـ مراعاة صفات الممدوح وهى العقل والشجاعة، والعدل والفقه . . وهى فضائل نفسية ينبغى على الشاعر ألا يحيد عنها إلى أمور أخرى .

٦ ـ مراعاة مكانة الممدوح فى السلطة . . فالسلطة قمة واسعة لكنها متدرجة ولكل طائفة صفات تختلف عن الأخرى . .

٧ ـ المبالغة فى المديح . . وقد اختلف فى حدود هذه المبالغة النقاد . . بل إن الشعراء أنفسهم لهم آراء فى ذلك . .

فقدامة بن جعفر يقود جماعة يقولون بالمبالغة على الحد الأوسط :

ويعد ابن رشيق الكذب من فضائل الشعر . .

وهذا بشار يقال له : إن المهدى لم يستجد شعرك .

فقال : والله لقد قلت فيه شعرًا لو قيل فى الدهر لم يخش صرفه على أحد ولكنا نكذب فى القول . . فنكذب فى الأمل . .

ومهما يكن من شيء فإن عنصر الصدق لم يكن من شرعة المديح المأجور . . ولم يكن له تلك الحدود والمظاهر المألوفة التقليدية . .

مدائح المتنبى

لا يجوز لنا أن نعبر التاريخ هكذا دون أن نقف وقفة متأنية عند ظاهرة شاعر العربية الفذ أبى الطيب المتنبى ، الذى اختلفت حوله الآراء . . وبالتالى اختلفت النظرة إلى مدائحه وهجائياته للسلطة . .

لقد اتهمه البعض بالنفاق . . وبرر البعض الآخر تغير وتبدل مواقفه . . والتمس له الحجة التى تجعل منه شاعراً كبيراً . . بل يبالغ فى ذلك بعضهم فيقول : لولا المتنبى ما كان لسيف الدولة ذكر ولا مكانة تاريخية . . على حين يواجهه آخر بقوله : لو لم يكن سيف الدولة ما كان المتنبى . . فالمتنبى شاعر سيف الدولة وإن تعدد ممدوحوه . . وسنحاول هنا أن نستقرئ موقف المتنبى من السلطة بنظرة موضوعية مجردة . . حيث نؤكد ابتداء أن أروع شعر المتنبى وأشده استقلالاً بذاته هو ما قاله فى سيف الدولة . . فله ما يزيد على ثمانين قصيدة ومقطعة . . وليس لشاعر آخر ولا لأبى الطيب نفسه شعر بهذا القدر فى ممدوح آخر . .

ويذكر تاريخ المتنبى أنه انقطع إلى أمير حلب - سيف الدولة - تسع سنين لا يمدح سواه . . وحتى فى قصائده التى مدح فيها غير سيف الدولة نجد طيف سيف الدولة فيها إلى حد كبير . .

لقد تشرب الشاعر روح ممدوحه فأصبح لا يرى أحداً سواه . . !

والغريب أننا نلاحظ أن المتنبى مع الأمير الحمدانى قد ارتضى القيد لنفسه مضحيا بالشعر الخالص فى سبيل أميره . . فهو عكس بقية المداحين السابقين الذين ظلت حياتهم الفنية ملك أيديهم يتصرفون فيها ويطرقون موضوعات شتى بجانب المدح .

نقول انصرف الشاعر عن خالص الشعر ولم ينظم فيه إلا ما له علاقة بالأمير ونحسب الشاعر لم يجد مللاً ولا تكراراً فيما يكتبه عن سيف الدولة ربما لأن حياة الأمير كانت شديدة التنوع . . سريعة الإيقاع . . كثيرة الأحداث والمزايا . . متعددة المواقف . . كما أن حياته الخاصة تميزت بالترف واللهو ومجالس العلم والمنادمة . . مما انعكس على أشعاره بنفس التنوع . . فإذا أضفنا ما لاقاه الشاعر من حسد الشعراء والعلماء لما حظى من مكانة لدى الأمير . . ندرك تمامًا ذلك السر فى تنوع وخصوبة شعر المتنبى فى سيف الدولة . .

وهناك ملاحظة مهمة أخرى فى هذا الصدد تتعلق بحرص المتنبى على أن يصور نفسه بجانب ممدوحه . . ويفاخر بنفسه بجانب فخره بالأمير ، كما أنه كان يدرك تمامًا أن سيف الدولة كان رجل شعر وثقافة . . وأن لديه ذوقًا أدبيًا وخلقًا رفيعًا . . بحيث يقدر الكلمة . . ويدرك ما وراءها . .

وليس أدل على ذلك من موقف الأمير من حساد المتنبى حينما أرادوا الايقاع بينه وبين الأمير . . فأبو فراس ينكر على سيف الدولة أن يعطى هذا (المتشدق) ثلاثة آلاف دينار كل عام على ثلاث قصائد . . بينما يمكن تفريق مائتى دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره . .

وهذا ابن خالويه يقعد له بالمرصاد ويجادله فى اللغة ويحاول أن يخطئه . . بل إن الشعراء الآخرين أخذوا يحتجون على ما بلغ من مكانة خاصة لدى الأمير . . ويبدو أن الأمير كان قد بدأ يتأثر بأقوال خصوم المتنبى فأبطأ عنه وأهمله بعض الوقت . . حتى جاء يوم أظهر للشاعر إعراضه وغضبه صراحة . . فأقبل الشاعر معتذرًا يقول :

أرى ذلك القـــرب صـــار ازورارًا

وصـار طويل السـلام اختـصـاراً

تركـــتنىَ اليـــوم فى خـــجلة

أمــوت مـــرارًا وأحـــيـا مـــراراً

فـــلا تُلزمنّى ذنوب الزمـــان

إلىّ أســـــاء وإياى ضــــــاراً

ثم يأتى ذلك الموقف الشهير حينما أراد المتنبى مواجهة خصومه وتحديهم فيلقاهم فى حضرة الأمير وجها لوجه . . وينشد قصيدته :

واحــرَّ قلبـــاه ممن قلبــه شــبِمُ

ومن بجسـمى وحالى عنده سقمُ

ثم بدأ يتظلم من التقصير فيقول :

مالى أكتّم حبًا قد برى جسدى

وتدعى حبَّ ســيف الدولة الأممُ

قد زرته وسيوف الهند مغـمدةٌ

وقـد نظرت إليـه والسـيـوف دمُ

فهمَّ جماعة من الحضور بقتله فى مجلس الأمير لشدة إدلالة وإعراض الأمير عنه . . فلما وصل إلى قوله :

يا أعـدل الناس إلا فى معـاملتى

فيك الخصام وأنت الخَصم والحكَمُ

قال أبو فراس : لقد مسخت قول دعبل الخزاعى :

ولست أرجو انتصافًا منك ما ذرفت

عينى دموعًا وأنت الخصم والحكم

فقال المتنبى :

أعـيـذها نظرات منك صـادقـةً

أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورمُ

فعلم أبو فراس أنه يعنيه فقال : ومن أنت يا دعىّ كنده حتى تأخذ أعراض الأمير فى مجلسه . .

فاستمر المتنبى فى إنشاده غير عابئ بأبى فراس :

ومـا انتـفـاعُ أخى الدنيـا بناظره

إذا استـوت عنده الأنوار والظُلَمُ

سـيعلم الجمع ممن ضمّ مجلسنا

بأننى خـيـر من تسـعى به قـدمُ

أنا الذى نظر الأعـمى إلى أدبى

وأسـمعت كلمـاتى من به صـممُ

فزاد ذلك غيظًا لدى أبى فراس وقال: سرقت هذا من عمر بن العبد فى قوله:

أوضحتُ من طرق الآداب ما اشتكلت

دهرًا وأظهرتُ إغرابًا وإبداعًا

حتى فتحت بإعجاز خصصت به

للعمى والصمِّ أبصارًا وأسماعا

لكن المتنبى لم يلتفت إليه واستمر يقول:

أنام ملء جفونى عن شواردها

ويسهر الخلق جرّاها ويختصمُ

الخيل والليل والبيداء تعرفنى

والسيف والرمح والقرطاس والقلمُ

وهنا صاح أبو فراس:

ـ وما أبقيت للأمير إذا وصفت نفسك بكل هذا.. تمدح الأمير بما سرقته من كلام غيرك وتأخذ جوائزه..

ويظل المتنبى ينشد.. وأبو فراس يستهجن ما يقول حتى ضجر سيف الدولة، فتناول سيف الدولة الدواة من أمامه وضرب بها المتنبى.. فقال:

إن كان سركم ما قال حاسدنا

فما لجرحٍ إذا أرضاكمُ ألمُ

فقال أبو فراس :

ـ وهذا أخذته من بشار :

إذا رضـيـتم بأن نُجـفـى وسـرَّكمُ

قـول الوشاة فلا شكوى ولا ضجرُ

فلم يلتفت سيف الدولة إلى ما قاله أبو فراس . . وأعجبه بيت المتنبى ورضى عنه فى الحال وأدناه إليه وقبل رأسه وأجازه بألف دينار ثم أتبعها بألف أخرى . .

* * *

كانت إذن صلة المتنبى بسيف الدولة تقوم على عنصرين : الحرص على رضا الأمير والحذر من العواقب . .

لهذا وجدناه فى قصائده يفصح عن أطماعه شيئًا فشيئًا . . فإذا تحقق منها شىء قفز عليه إلى طمع آخر . .

ويرى كثيرون أن مدائح المتنبى من أجود قصائده فنيا حيث تجتمع فيها الحكمة والفلسفة والبيان واللغة والصورة . . إلى جانب المعنى الإنسانى العام .

ولسنا ننكر على شاعرنا قدرته الفائقة وشاعريته الفذة فى مدائحه لسيف الدولة . . وإنما نحن الآن بصدد تقويمه فى دائرة أخرى . . وأمامنا تلك الجرعة التى قطّرها الشاعر خلال مدائحه ليكون إلى جانب السلطة يتكسب منها . . ويحظى بما لم يحظ به شاعر آخر فى بلاط الأمير .

فإذا انتقلنا مع المتنبى إلى ممدوحه الآخر فى مصر . . كافور الإخشيدى فنحن أمام شاعر خاصم أمير حلب بعد أن تشرب بروحه وثقافته . . ولجأ إلى ممدوح آخر أقل قيمة وقدرة على فهم الشعر وتذوقه . .

فالمتنبى كان معجبًا بأمير حلب . . وكان صادقًا فى إعجابه به . . ومن ثم جاء شعره فى المستوى الفنى الجميل . .

لكنه فى مصر قد استغل براعته التى سهلت له الإجادة فى مجال الكذب والتظاهر بالإعجاب لحاكم لا يقدر الشعراء . .

وإذا كان المتنبى فى حلب حريصًا على تسجيل سياسات سيف الدولة . . ومعاركه وانتصاراته . . فهو فى مصر لا يهمه ذلك . . بل كان همه المديح والعطاء .

مدح المتنبى كافوراً بثمان قصائد . . ثم هجاه ساخراً مرًا حتى صيره أضحوكة . . حيث عيره بالسواد وقبح المنظر وضخامة الجثة . . وأنه مشقوق المشفر . . غليظ القدمين . . خصىّ . . !

والسؤال الذى يثور الآن . .

ترى هل كان المتنبى صادقًا فى مدحه لكافور وهجائه له . . أو كان كاذبًا؟

ألم ير المتنبى كل عيوب كافور هذه قبل أن يمدحه؟

إن التاريخ يؤكد إعجاب الناس فى مصر بكافور وخلقه ومهارته السياسية حينما أشاد بها المتنبى فصدقوه . . وحينما سمعوا هجاء

الشاعر له . . هزءوا به . . مما يؤكد قدرة الشاعر على التلاعب بآراء الناس وأهوائهم . .

لقد رفع المتنبى كافورًا إلى مكانة رفيعة فهو يقول :

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيًا
وحسب المنايا أن يكنَّ أمانيا
قواصدُ كافور تواركُ غيرِه
ومن قصد البحر استقلّ السواقيا
أبا المسك ذا الوجه الذى كنتُ تائقًا
إليه وذا اليوم الذى كنتُ راجيا

أو يقول :

أغالبُ فيك الشوق والشوق أغلبُ
وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجبُ
ألا ليت شعرى هل أقول قصيدة
فلا أشتكى فيها ولاأتعتّبُ
وأخلاق كافورٍ إذا شئتُ مدحه
وإن لم أشأ تُملى علىّ وأكتبُ
إذا ترك الإنسان أهلاً وراءه
ويمّم كافورًا . . فلا يتغربُ

فـتى يملأ الأفـعـال رأيًا وحكمـة

ونادرة أحـيـان يرضى ويغـضبُ

أبا المسك هل فى الكأس فضل أناله

فـإنى أغنّى منذ حين وتشـربُ

ويقول أيضًا :

وبحـر أبو المسك الخضمّ الذى له

على كل بحـرٍ زخـره وعـبـابُ

تجـاوز قـدر المدح حـتى كـأنه

بأحـسن مـا يُثنى عليـه يعـاب

ويستمر الشاعر فى المبالغة فى مدح كافور وإلباسه ثوب العظمة والرفعة والجود والأفعال الحسنة . . لعله يمنحه كرسى إحدى الولايات . . حتى أصابه الغرور والطمع . . وراح بقية الشعراء يسخرون منه حتى كرهوه . .

لكن يبدو أن السلطة أحيانًا تدرك موقف المنافقين . . فتستخدم أسلوبها فى التعامل معهم . . فأغلب الظن أن كافورًا كان مدركا هدف المتنبى من هذا النفاق الرخيص . . ومع هذا قرر تحمله ليظفر بأكثر ما يملكه الشاعر من المديح . . لذلك راح كافور يماطله ويزين له الوعود كالسراب . . فأفاق المتنبى على حقيقة الأمر من وهم كبير . . خاصة حينما أصابته الحمى فلم يعد يرى تلك الرعاية المتوقعة من كافور . . وشعر بالضيق والأسى . . وأدرك بفطنته متأخرًا أن كافورًا قد خصص

له الجواسيس يراقبونه ويحصون عليه أنفاسه . . مما جعل المتنبى يترقب الفرصة السانحة للرحيل والهرب . . وتشاء الصدف أن يقبل العيد . . وكان من عادة كافور أن ينشغل فى توزيع الهدايا والعطايا . . فوجدها المتنبى فرصة مواتية للهرب - ثم أنشد قصيدته الهجائية الشهيرة التى قالها قبل خروجه من مصر بيوم واحد (٣٥٠هـ) والتى يقول فيها :

عيد بأية عيد عدتَ يا عيدُ

بما مضى . . أم لأمرٍ فيك تجديدُ

أما الأحبةُ فالبيداء دونهم

فليت دونك بيداً دونها بيدُ

وبعد أن يصور أساه هذا بالفراق نقض مدائحه كلها لكافور بقوله :

ماذا لقيتُ من الدنيا وأعجبُه

أنى بما أنا باكٍ منه محسودُ

إنى نزلتُ بكذابين ضيفُهم

عن القِرى وعن الترحالِ محدودُ

صار الخصىُّ إمام الآبقين بها

فالحر مستعبدٌ والعبد معبودُ

لا تشتر العبدَ إلا والعصا معه

إن العبيد لأنجاسٌ منا كيدُ

ما كنت أحسبنى أحيا إلى زمن

يسىء بى فيه عبدٌ وهو محمودُ

وأن ذا الأسود المثقوب مشفره

تطيعه ذى العضاريطُ الرعاديدُ

من علّم الأسود المخْصِىَّ مكرمة

أقوامه البيض أم آباؤه الصيدُ

كان المتنبى إذن ساخطًا على كافور لأنه لم يحقق له آماله التى تمناها وباءت بالفشل . .

ولنا أن نتساءل عن هذا الموقف . . وكيف لشاعر كبير مثل المتنبى أن يتحول هكذا من النقيض إلى النقيض . .

إننا نلاحظ أن هجاء المتنبى لكافور قد اتسم بالسخرية واللذع واللمز والقذع والحط من المكانة . . فهو صادر عن نفس أجهض أملها . . وخاب ظنها . . ويئست من المماطلة والتسويف . . وسخطت على الحياة . . فكأنه كان مدفوعًا بطمعه إلى مدحه لعله يحظى منه بما يريد . . ثم أفاق على الواقع المرير . . فلون أشعاره بلون آخر تمامًا . . وسود اللوحة المضيئة ليرى كافوراً على حقيقته بلا مبالغة . . عبداً أسود . . لم يرث من آبائه مكرمة ولا مجدا . . وهو مملوك اشترى بثمن بخس . . حقير مشقوق المشفر . . خصى لأنه عبد نجس منكود يطيعه الجبناء . . إلى آخر هذه الصفات التى لم يكن يراها من قبل فى مدائحه . .

ولنا أن نتساءل هنا . . ترى لو أن كافوراً قد بلّغ المتنبى ما أراد أكان يرى فيه تلك الصفات الدنيئة . . وماذا عن حظ العبيد المناكيد فى شعره؟

إن كل شىء جميل انقلب إلى قبح . .

وكل شىء كريم انقلب إلى إمساك وبخل وشح . .

وكل شىء سام انقلب إلى دناءة وانحطاط .

وكل شىء مكرم معظم تحول إلى هوان وذلة . .

وفى هذه الأثناء يتذكر الشاعر . . سيف الدولة . . ويعوده الحنين إليه . . ومن جميل ما يقول فى ذلك :

فارقتكم فإذا ما كان عندكم

قبل الفراق أذىً بعد الفراق يدُ

إذا تذكرت ما بينى وبينكم

أعان قلبى على الشوق الذى أجدُ

وإذا كان لنا أن نلتمس العذر للمتنبى على تلون مواقفه من كافور . . فلا نود أن نغفل تلك الصفة البشرية التى تغلف النفس بالطمع والغرور . . وأحسب أن الشاعر هنا كانت تحركه تلك النزعة فى بلاط سيف الدولة أو فى بلاط كافور . . لكنه فى بلاط سيف الدولة قد اكتفى بالرحيل عنه فى صمت ربما لأن الرجل كان يحبه . . ولم يكن يسمع لحاسديه . . ونصره عليهم . . لكن الشاعر نفسه ضاق بهم ولم يضق بممدوحه . .

أما كافور . . فكان مختلفًا فى كل شىء: ثقافة وخلقًا وشرفا ونسبا . . ومن ثم تجرع صلته به . . وصبر عليه حتى يحظى منه بشىء دون جدوى . .

لقد طمع الشاعر لدى هذا العبد حينما رفعه فى درجة السيادة أن يلبى له حاجة فى نفسه . . ولم يكن يدرك مغبة ذلك . . ولم يكن يعى ما وراء هذه المماطلة فتثور نفسه البشرية ويفيق - إنسانًا - على خديعة كبرى . . فماذا يفعل؟

لم يكن من المعقول ان يرحل فى صمت كما فعل مع سيف الدولة . . وكأنه عزم على إسقاط كافور من هذه المكانة التى منحه إياها إلى منزلة العبيد المناكيد - على حد قوله . .

لكن هذا كله لم يعف شاعرنا الكبير من سقوطه هو الآخر فى هوة النفاق الرخيص والمبالغة برغم ما نجده فى قصائد كافور - المدائح والأهاجى - من شاعرية فذة . .

مدائح ما بعد المتنبى:

لم يختلف عن المتنبى الشعراء الذين عاصروه أو جاءوا بعده . . فقد تأثروا بطريقته وأسلوبه فى المديح . .

فقد كان السرى الرفاء . . وابن نباتة السعدى . . ومهيار الديلمى يمدحون كما كان يمدح المتنبى فى صور قريبة من صوره . .

ومن يقرأ أخبار **مهيار الديلمى** يقع على حقيقة لا تقبل الشك . .

فقد شهد القرن الرابع الهجرى ابتذالاً فى المديح وفى ذل السؤال وكثرة الاستجداء . . بل إن قدامة بن جعفر قد صنف فى كتابه (نقد الشعر) أساليب مدح الملوك والوزراء وأصحاب الصناعات والكتاب . . وصنف بالتالى القصائد حسب منزلة الممدوح وصنعته . . ويكاد مهيار يكون مسئولاً بعد ذلك عن نهاية قصيدة المديح فى نهاية القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس فى قيمها وتقاليدها وشكلها الفنى . .

وقد أجمع المؤرخون على أن قصيدة المديح لدى مهيار تحددت بملامح خاصة هى :

أولاً : صار المديح لدى مهيار بضاعة تعرض للبيع وينتظر ثمنها . . بل صارت مصدر رزق للشاعر المحترف الذى تحول الشعر على يديه من موهبة الشاعر إلى حرفة من الحرف .

ثانيًا : تحولت القصيدة إلى مراسم ومناسبات تقدم التهانى بالنيروز والمهرجانات والأعياد أو اجتهدت فى إضافة لقب فخم جديد لوزير أو قائد . .

ثالثًا : ربما كان الشاعر العربى يحاول أن يضع تقاليد المديح من خلال تحقيق رغبة الممدوح . . حتى جاءت قصيدة مهيار لتحدد مواضع المديح فتصف الحادثة التافهة وتبالغ فى الأمر الحقير فتعظمه . . وكأن الشاعر هنا يستجدى ممدوحه استجداء مهينًا .

ويشهد المؤرخون كذلك على تلمذة مهيار على أستاذه الشريف الرضى خاصة فى مقدمات قصائده . . لكن يبدو أن هذه التلمذة

كانت تنشد تحقيق فنية القصيدة أكثر مما تنشد أموراً أخرى . .

بقى لنا الآن أن نؤكد هذه النظرة بنماذج من مدائح مهيار . . وبين يدينا هذه القصيدة التى أرسلها إلى أبى القاسم نقيب النقباء فى عهد بهاء الدولة يقول فيها :

لك الخير شكوى ذليل السؤال لو كنت حاضره لم يُذلّ
كرمت ابتداءً كما قد علمت . . كالغيث لم ينتظر أن يُسَلْ

وله فى السؤال والاستجداء شعر كثير يشير فيه إلى سوء حاله . . ويشكو الزمان والناس . . ومن ذلك ما قاله للوزير المغربى الذى عرف برعايته الدائمة للشاعر :

ولم أستزد نعماك إلا ضرورةً
وقد تستزاد المزن وهى دوالحُ
بما ثقَّلت ظهرى الخطوبُ وضاعفت
تكاليف عيشى وانحنتنى الجوائحُ

وكتب مهيار إلى أحد الوزراء يشكو الحال ويستجدى :

دعوناكم من وراء التى
لسان البليغ بها يحْصِرُ
وعن خَلّةٍ باطن داؤها
تجمّل بالصمت أو تُستَرُ

مكحلة خـــشن مــسُّـــهـــا
إلى أكلنا فـــمـــهـــا يُفْـــغَـــرُ

يعـــز على المجـــد والمكرمـــا
ت أنا بأنيـــا بهـــا نُعـــقَـــرُ

ونـحـن مـن الـدهـر بـل مـنـكـمُ
بـل ســـــدّ خلّتنـا أجـــــدرُ

ومهيار فى استجدائه هذا ليس غريبًا عن عصره . . فهو شاعر مرتزق أصبحت قصيدته وسيلة للطلب إذا ما انقطعت الصلة وساء الحال . . فإذا وجد المشترى المعجب من السلطة . . ساومه وطالبه بأغلى ثمن . . وإذا ألحت عليه الحاجة طلب واستجدى وألح فى السؤال . .

وهى نقلة مختلفة فى درجتها كما نرى عن تلك التى كان فيها زهير أو المتنبى أو غيرهما . . فقد كان المديح عند هؤلاء يصدر عن قدر من الإعجاب وإن خالطه قدر من الاستجداء .

ويبدو أن مهياراً أيضًا لم يستفد من أستاذه الشريف الرضى حبه وإعجابه بممدوحيه فقلب الصورة . . وجعل القدر الأكبر منها استجداء وسؤالاً وإلحافًا ومساومة . . والقدر الخفى حبا وإعجابا !

ويظل المديح فى قصائد الشعراء محصوراً فى دائرته تلك أجيالاً متعاقبة . . وبالرغم مما يحمله فى بعض نماذجه من فنية النظم فإن مقصده لم يخرج عن السؤال وممالأة السلطة مهما كان شأنها وحجمها وقيمتها . .

المدائح المعاصرة:

كان لابد أن نقفز قفزة واسعة إلى العصر الحديث لعلنا ندرك اختلافًا بينا نرصده ويكون ذلك إضافة أخرى لساحة المديح . .

إن العصر الحديث يتميز أيضًا بأن الشعراء ظلوا فيه سنوات طويلة غارقين فى أدب المديح للسلطة . . يعيدون نفس المعانى والصور والمبالغات . . ويخلعون على رجال السلطة البسالة والشجاعة والفطنة وربما التقوى والمكرمات!

وبالرغم من عدم خروج المديح المعاصر عن الأسلوب القديم . . فإن نفس الدوافع القديمة لم تسقه ولم يلق لها الشاعر المعاصر بالا . . فلم يكن يطمع فى مال أو مكانة . . وربما كان جل ما كان يطمع إليه هو رضا السلطان عنه . .

كما وجدنا أن الشعراء المعاصرين كانوا يتنافسون فيما بينهم فى الإسراع إلى التقاط المناسبة التى تهيئ لهم الحضور إلى الساحة ومدح السلطان . . وكان الشاعر الذى يتخلف عن ذلك كأنه تخلف عن ركب الشعراء فى عصره . .

ويبدو أن المديح السياسى كان الغالب لدى الشعراء المعاصرين منذ بداية القرن العشرين أو قبله بقليل . . ويمكن أن نؤرخ له حينما قامت الآستانة ونشأ ميل إلى العروبة تارة وإلى الإسلام تارة أخرى .

فالبارودى مثلا قد قصر مدحه على ولاة مصر فى عهده : إسماعيل وتوفيق وعباس الثانى . . وهو فى مدحه لا ينسى بلده مصر وموقف الوالى منها وما قدمه لها . . أو ما يرجى منه أن يقدم . .

فيمدح توفيقًا لأخذه بالشورى وأن ذلك من تعاليم الإسلام . . أما إسماعيل فقد بشر به البلاد حينما تولى الحكم . .

لكن البارودى لم يكن شاعرًا مداحًا متكسبا بشعره . . لأنه كان أميرا فارسًا عفيفًا يقول الشعر للتعبير عن خلجات فؤاده . . فهو إن مدح لا يقصد العطاء . . وإنما للتعريف بمنزلة الممدوح أو الشكر على يد أسديت إليه . .

وخلا مديح البارودى من المبالغات وإن كان يدور فى نفس المعانى القديمة . .

أما شوقى فقد امتدح الخلفاء العثمانيين وحكام مصر . . بل انتصر لمصطفى كمال ولرجالات مصر الذين كانوا يسعون إلى استقلالها .

ثم حينما انفصلت الدول العربية عن الآستانة قام الشعراء أيضًا بمديح الحكام والملوك ونصر سياستهم فى العواصم العربية . .

لقد كان شوقى صاحب نفوذ قوى لدى السلطة بل يعترف بذلك فى قوله :

أأخـــون إســـمـــاعـــيل فى أبنائه

ولقـد ولـدت بـبـاب إسـمـاعـيـلا

ونجده حينما يمدح عباسًا يغالى فى مدحه متزلفًا إليه . . ويرى الدنيا فى عهده خيراً وسلامًا غير عابئ بالبؤساء من الناس الذين يعيشون خارج القصر . . يقول مثلا :

وقيل ابن رُب النيل فافترّت القرى

وناجى الثرى نعليك يستوهب الخصْبا

مبالغة فجة عقيم . .

ويذهب شوقى إلى الآستانة فينزل ضيفًا على السلطان عبد الحميد فيضفى عليه مدائحه التى تفرط فى تمويه الحقيقة ليجعل عصره خير عصور الرعية ويشبهه بعمر بن الخطاب فى عدله :

عـــمـــر أنت بيـــد أنك ظلٌ

للبـرايا وعـصـمـة . . وسـلامُ

مـا تتـوجتَ بالخـلافـة حـتى

تُوج البـائسـون والأيتـامُ

ويبدو أننا نظلم شوقيا لو حاسبناه بمنطق العصر . . فهو فى حياته كان أرستقراطيا بعيدًا عن معاناة الناس . . قريبًا من السلطة . . ينطق بلسانها لا بلسان الرعية .

وبالرغم من ذلك فلا ينبغى لنا أن ننسى مواقفه الوطنية حينما ينخرط مع الأمة ضد الفساد والظلم . . حيث نراه سرعان ما يثور بداخله حسه الوطنى الصادق فيتألم مع الجميع . . ويبكى معهم ويصير لسان الحق المدافع عن حقوقهم . .

نراه مثلا يواجه اللورد كرومر بعد أن خلع من منصبه عام ١٩٠٧ ويقول :

أيامكم أم عـهـد اسـمـاعـيـلا

أم أنت فـرعـونٌ يسـوس النيـلا

أم حـاكـم ٌفى أرص مـصـرَ بأمـره

لا سـائلا أبدا ولا مـسـئـولا

يامـالكًا رقَّ الرقـاب ببـأسـه

هلاّ اتخذت إلى القلوب سبيلا

لما رحلت عن البـلاد تشـهـدت

فكأنك الداءُ العيـاء . . رحـيـلا

وكذلك قصيدته (الأندلس الجديدة) التى قالها بعد سقوط أدرنة فى أيدى البلغار عام ١٩١٢ تعد من القصائد التى تعبر عن عاطفة الشعب والحكومة معا . .

ولأن السياسة المعاصرة لا تستقر على حال . . فلا عجب إذا تقلب شوقى معها وجاء شعره متناقضًا أحيانًا فى صوره . .

فمن مدائحه للسلطان حسين كامل تلك القصيدة التى يهنّئه فيها بالحكم ، ويمدح الإنجليز الذين حافظوا على عرش مصر فى الحرب العالمية الأولى ، وأتوا بالسلطان حسين بعد الأمير عباس الذى ترك مصر ولاذ بالأتراك . . يقول شوقى :

الملكُ فـيكـم آل إسـمـاعـيـلا

لازال بيـتكـمُ يظل النيـلا

الملك بين قـصـوركم فى داره

من ذا يريد عن الديار رحـيـلا

ثم يقول مادحًا الإنجليز :

حلفـــاؤنـا الأحـــرار إلا أنـهـم

أرقى الشـعـوب عـواطفًـا ومـيـولا

أعلى من الرومـان ذكـرًا فى الورى

وأعــز سُلطانا وأمنعُ غـــيـــلا

لما خـلا وجـه البـلاد لسـيـفـهـم

سـاروا سـمـاحًـا فى البـلاد عُـدولا

وأتوا بكابرها وشـيخ ملوكـــهــا

ملكًا عليـهـا . . صـالحًـا مـأمـولاً

وكما فعل شوقى فعل **حافظ إبراهيم** وإن اختلف عن شوقى فى أنه لم يكن طامعًا فى القرب من السلطة . . وإنما ربما ساقه إلى المديح أن يكون له وجود فى ساحة التنافس . .

يقول حافظ إبراهيم فى قصيدته التى يهنئ فيها الخديو عباس الثانى بعد جلوسه فى يناير عام ١٩٠١م :

إنى دعوت القوافى حين أشرق لى

عـيـدُ الأمـيـر فلبّت غُـرة الطلبِ

وأقـبلت كـأياديه إذا انســجــمت

على الورى وغدتْ منى على كثبِ

ثم يقول:

يا من تنافسَ فى أوصافه كَلِمى

تنافُس العرِب الأمجاد فى النسبِ

يا من توهم أن الشعرَ أعذبه

فى الذوق أكذوبةٌ.. أزريتَ بالأدبِ

عذبُ القريض قريضٌ بات يعصمه

ذكر (ابن توفيق) عن لغو وعن كذبِ

على حين نراه يمدح فؤاد الأول قائلاً:

(أبا فاروق) خذْ بيد الأمانى

وحقّقها على رغم الخصيمِ

أفقنا بعد نوم فوق نوم

على نوم كأصحاب الرقيمِ

وأصبحنا يمينَك فى نهوض

يكافئ نهضة النبتِ الجميمِ

فحطْنا بالرعاية كل يوم

نحفّك بالولاء المستديمِ

وقد كانت لأسرة محمد على فى شعر الشعراء قصائد كثيرة . . مبايعات وتهنئة بمولود جديد . . وتهنئة بزفاف . . وتهنئة بعودة من سفر . . وأحيانا نرى بعض الشعراء ينهون قصائدهم الدينية والوطنية والاجتماعية بذكر الملوك والأمراء والدعاء لهم . . وكأنهم بدون هذا الذكر المقحم فى قصائدهم سيقعون تحت طائلة العقاب . .

ولنقرأ للشاعر **محمود غنيم** فى ديوانه (صرخة فى واد) . . قصائده : مبايعة الفاروق - ميلاد الفاروق - زفاف الفاروق - تحية فريال - اللفتة الملكية وغيرها من الإشارات الأخرى فى ثنايا القصائد . . يقول فى قصيدته : مبايعة الفاروق :

النيلُ تحملُ سِبْط إسماعيلاَ
أرأيتُ نيلاً جاء يحملُ نيلاَ[1]

لو كانت الأفلاك تحدو مركبًا
لرأيت بين حداتِها جبريلاَ

يا بحرُ فوقك درةٌ هيهات أن
تلقى لها فيما حويت مثيلاَ

هذا هو الفاروقُ أشرق وجهُه
فسلِ الغزالة هل تريد أفولاَ[2]

(١) النيل : اسم باخرة
(٢) الغزالة : الشمس .

أفـــديه من مـلك أغـــرّ وراءَه

شـعبٌ يرتّلُ حـــمـــده ترتيــلاَ

يعنو لطلعــتِـه ويهـتف باسـمـه

ويكاد يتلو قَـــوله إنجـــيـــلاَ

أو يقول له حينما تحدث بعطف إلى المعلمين - وكان محمود غنيم من رجال التعليم :

فـــــاروق يـا أمل الـوادى ونجـــــواهُ

زدتَ المعلـمَ مــجــداً زادك اللهُ

أكــرم بهـــا لفــتـــةً جـــاد المليك بهـــا

من غــيــر منّ على أوفى رعـــاياه

فـاروق عـرشك فـوق النجم مـوضـعـهُ

إن المعلـمَ والتـلمـــيـــذَ ركناه

أو نقرأ أيضا فى ديوان الشاعر الدرعمى **على الجارم** عدداً كبيراً من القصائد التى مدح بها حكام عصره. . منها مثلا ما قاله عند عودة الملك فؤاد من أوربا عام ١٩٢٧ :

عـاد للقطر ربُّه مـــثلمـــا عـــا

د إلى المدنفِ العليلِ شـــفـــاؤُه

وبدا كالصباح فانهزم الليـ

ـلُ وولّت مـذعـورةً ظلمـاؤه

ملك شاد للكنانة مجدًا

أحكمتْ وضع أسّـه أباؤه

أو يقول في ذكرى ميلاد فاروق عام ١٩٤٣ :

ولد السّـعـدُ على أبوابه

ونما في ظـلِّـه لما نَمَـا

وبدا العـرشُ وقـد حلّ به

يفـرعُ الشـمسَ ويعلو الأنجـمـا

زانه الفـاروق من خـيـر أب

فـدع المأمـونَ والمعـتـصـمـا

حين عـزّ الدينُ والملكُ به

هنّأ المنبـرُ فـيـه العَلَمَـا

أنا من فـيضٍ له مـتـصلٍ

أنعمٌ تمضي فـألقى أنعُـمَـا

ليس بدًا أن زها شـعـري به

يزدهي الروضُ إذا الغيثُ همـا . .

نظرة متأملة:

وقبل أن ننهى وقفتنا هذه من خلال مدائح الشعراء ونفاقهم للسلطة . . يحسن بنا أن نضع أيدينا بعد هذا الطواف على حقائق مهمة فى هذا الصدد نجملها فيما يلى :

أولا : كان الشعر هو مظهر الإعلام الوحيد فى العصور العربية الأولى . . ومن ثم حرصت السلطة - مهما كان حجمها وقيمتها - على استمالة الشعراء إلى جانبها وتجنب ألسنتهم المسنونة . . وإطعام أفواههم . . وحشو سراويلهم بالمال حتى لا ينقلبوا عليهم . .

ثانيًا : أن السلطة تدرك تمامًا أن بيتًا واحدًا يمكن أن يقلب عرشًا ويزعزع سلطانًا . . فكانت تلجأ إلى المهادنة أو التهديد إذا طال لسان الشاعر . .

ثالثًا : تنافس الشعراء - وقد فطنوا إلى أهميتهم لدى السلطة - فى توليد المعانى والمبالغة فى النفاق والمديح . . حتى إن المؤرخين أنفسهم درجوا على المفاضلة بينهم فى ضوء هذه المبالغة فيقال مثلا : أشعر بيت فى المديح قاله الشاعر فلان . . وهكذا!

رابعًا : لقد قامت فى العصر الجاهلى على أطراف الجزيرة العربية إمارتان عربيتان كان لهما أثر كبير فى أطماع الشعراء فى اتخاذ الشعر وسيلة للمعاش والغنى والثراء والطموح إلى الترف واللذات والشهوات . . هما إمارتا الحيرة فى العراق والغساسنة فى الشام . . وكان أمراء الحيرة مقصدًا لشعراء الجزيرة يجودون عليهم بالمال والجوائز ليبشروا بهم بين البدو فى أنحاء الجزيرة . . أما الغساسنة فقد

كانوا أقرب اتصالاً بالثقافة اليونانية والمدنية الرومانية . . ومن ثم امتلأت قصورهم بالترف والخمر والقيان . .

وإذا كان بعض شعراء الجاهلية قد أقبل على هذا الترف معجبًا بطيب العيش ونعيم الحياة فإن ما خفى فى نفس الشاعر من دوافع لا يمكن أن نغفله وهو اتخاذ الشعر مصدرًا للتكسب . .

خامسًا : إن كان الإسلام قد حرم على المسلم كسب قوته إلا من عمل يده . . فقد شجع الإسلام الشعراء على مقارعة شعراء الكفر ومناصرة الدعوة الإسلامية . . أى أنه إذا كان لابد من قول الشعر فليقله الشعراء من أجل الأهداف النبيلة والقيم الرفيعة وليس من أجل التكسب . .

لكن هذا الأمر لم يدم طويلاً - نسبيًا - إلا فى صدر الإسلام . . فحينما جاء العصر الأموى وانحرف خلفاؤه عن هذه المبادئ وزعموا أنهم خلفاء الله فى الأرض . . أحيوا عصبية العصر الجاهلى واعتمدوا على الشعراء يزكون نار هذه العصبية . . فكان لهم دور فى تأييدهم دون الأحزاب الأخرى . .

ومن الطبيعى أن يجتهد شعراء كل حزب فى تأييد سلطته وإقامة الحجج بأحقية الحزب فى الخلافة ولو كان ذلك غير صادق . . ويكفى مثلا على ذلك الفرزدق . . وكانت بينه وبين جرير مساجلات ونقائض منثورة فى كتب الأدب . . لكن تعصب الفرزدق لبنى أمية جعله شاعرًا لا يرى غير ذلك . . فحينما انتصر عبد الملك بن مروان على الزبير قال الفرزدق :

فـــالأرض لله ولأّها خليـــفـــتـــه

وصـاحب الله فـيهـا غيـر مـغلوبِ

بعـد الفسـاد الذى قـد كـان قـام به

كـــذابُ مكة من مكـر وتخـــريبِ

رامـوا الخـلافـة فى غـدرٍ فاخطأهم

منهـا صــدور وفـازوا بالعـراقـيبِ

فهو هنا يصف ابن الزبير بكذاب مكة ويجعل عبد الملك بن مروان الخليفة الشرعى على الأرض . .

وكما فعل الفرزدق فعل جرير حيث أفنى حياته فى الولاء لهم .

ونلاحظ أن الأحزاب السياسية الأخرى التى كانت تناوئ الأمويين كان لها أيضًا شعراؤها الناطقون باسمها والمدافعون عن مبادئها وشرعيتها . . وكان حب المال والرغبة فى الهبات دافعًا لكثير من الشعراء وهدفًا لهم . . إلا أنه من الحق أن نؤكد هنا أن شعراء الخوارج يمكن أن يستثنوا من ذلك . . فهم شعراء لم يرتزقوا ولم يتكسبوا بشعرهم هكذا . . ويروى عن عمران بن حطان أنه مر يومًا على الفرزدق وهو ينشد الناس حوله فوقف وأنشد هو :

أيهـــا المادح العـــبـــاد لتُـــعطى

إن لـلـه مــــا بـأيدى العـــــبـــــادِ

فـاســأل الله مــا طلبتَ إليــهـم

وارجُ فــضـل المقــسِّـم العــوّادِ

لا تقل فى الجـواد مــا ليس فـيــه

وتسمّ البـــخـــيلَ باسم الجـــوادِ

سادسًا : لقد طغى النظام الإقطاعى فى العصر العباسى طغيانًا شديدًا . . وشاع الثراء والترف فى قصور الحكام والأمراء والوزراء . . على حين ساد الفقر بين عامة الناس . . وكان الشعراء - بالطبع - من عامة الناس . .

وقد تجمعت العصبية فى البيت العباسى بلا منافس . . بعد أن كانت مثارًا للمنافسة فى العهد الأموى . .

وبالتالى فتحت قصور رجال السلطة العباسية للشعراء يمدحون ويكرسون تلك السلطة . . ويتلقون الجوائز والعطايا . . بل انقسم الشعراء على اتساع الساحة إلى فريقين : فريق يسعى جاهدًا للوصول إلى ذوى السلطان والبحث عن وساطة تعينهم على ذلك . . وفريق طار صيته وشاع شعره وحقق لنفسه مكانة أدبية مشهود لها . . فمهد ذلك سبل الدخول إلى مجالس السلطة دون وساطة أو توسل . .

ويروى فى ذلك أن أبا العتاهية بلغه قول المتوكل : لولا عمى أبو العتاهية لاستنكرت منه . . فقال : قولوا لأمير المؤمنين إن كان يريدنى لرؤية الأهلة ونظم اللآلئ واليواقيت وقراءة نقوش الخواتم فأنا لا أصلح لذلك . . وإن كان يريدنى للمناظرة والمذاكرة والمسامرة فناهيك بى . .

فلما بلغ ذلك المتوكل ضحك وأمر بإحضاره ومنادمته . .

ويؤكد هذا الخبر أن بعض الشعراء كانوا يواجهون السلطة بجرأة وشجاعة فى حالة واحدة وهى أن تمس السلطة كرامة الشاعر وتشعره بالإهانة . . لكن ذلك أيضًا لا يعفى الشعراء من أنهم كانوا يجدون فى أحضان السلطة دفء الجوائز والعطايا . . فتنثال المعانى الشاكرة والمادحة على ألسنتهم . .

كما أن شاعراً مثل البحترى يمثل فى خريطة الشعر معلمًا مهما - كانت له مواقفه التى تحكمها أمور أخرى غير الإحساس الصادق واستقامة الرؤية - على الصعيد الفنى - فها هو يسجل كيف عقد المتوكل ولاية العهد لأبنائه الثلاثة فيقول :

قـدامـهـم نور النبى وخلفـهـم

هدىُ الإمـام القـائم المحـمـودُ

ومدح أيضًا أحمد بن طولون أمير مصر وابنه خمارويه وبعض قواده وغيرهم . . وفعل مثله أيضًا كثير من الشعراء منهم : محمد بن غياث الكاتب الذى مدح وزير المستنصر أحمد بن الخصيب - وكان يتميز بالحمق والغباء وقلة الحيلة - فأضفى عليه أجمل الصفات قائلا :

سمّوه أحمد فالإسلام يحمده

والدهر كاسم أبيه ممرع خصبُ

فـلا فـضـائل إلا منه أوّلها

ولا مـواهب إلا دون مـا يهبُ

سابعًا: حينما سقطت بغداد فى أيدى المغول (٦٥٦هـ) لجأ الشعراء إلى مصر المملوكية وحاولوا التقرب إلى السلطة والتكسب منها . . لكن الولاة كانوا لا يشجعون الشعراء . . ومن ثم وجدنا شعراء العصر المملوكى يحترفون بعض الحرف يكسبون منها وسائل العيش حتى كان منهم الجزار والكحال والخياط والدهان . .

ثامنًا: حاول الشعراء فى العصر العثمانى والعصر الحديث أن تكون لهم حُظوة لدى السلطة الحاكمة . . لكن فساد الحكم والاستبداد والقهر كانت عوامل كثيرة جعلت الشعراء ينظمون الشعر فى تملق الحكام والرؤساء .

تاسعًا: اختلفت مواقف الشعراء المحدثين منذ منتصف القرن العشرين - وسوف نفصل ذلك فى باب قادم - ولم تعد هناك ظاهرة التكسب بالشعر كما كان فى الماضى . . لأن مهنة الشاعر كانت فى الأزمنة الأولى معترفًا بها . . ولم يكن للشاعر مصدر رزق آخر يكتسب منه قوت يومه . .

أما شاعر اليوم فله مهنة اجتماعية يعيش منها وصار الشعر فنا من الفنون التى تضيف لصاحبها مكانة اجتماعية وفنية رفيعة . .

ومن ثم صار من المستغرب بل من المستهجن أن نرى شاعرًا معاصرًا يمالئ السلطة ويعلن لها الولاء كذبًا ونفاقًا . . بل يجعلنا ذلك نسأل عما يريده الشاعر من السلطة حتى ينافقها . . وما تريده السلطة من الشاعر . . إن مكاسب اليوم لم تعد هى مكاسب الأمس . . ولم يعد الشعراء وحدهم يتنافسون فى الساحة لاكتساب الرضا من السلطة . . بل صارت الأقلام والوجوه والأصوات فى وسائل

الإعلام المختلفة تفعل أكثر مما ارتكبه الشعراء قديمًا فى حق أنفسهم . .

نعم سادت الساحة السياسة أقلام تعلن الولاء الخالص للسلطة وتزين ما تفعله . . وترفع الوضيع . . وتبلغ بالقزم مكانة النجوم . . وأصحاب هذه الأقلام يطمعون فى منصب أو مكانة اجتماعية أو سلطة من أى نوع . وانغلق كثير من الشعراء على عالمهم الخاص . . لا لأنهم ابتعدوا عن سحر السلطة وعطاياها . . ولكن احتجاجًا - ربما - على ما يحدث . . وما تبثه هذه الأقلام من الأكاذيب والسموم والنفاق السياسى والاجتماعى .

ترى ما الذى يدفع الشاعر إلى الفخر بنفسه وبقومه . . ويبالغ فى إلصاق الصفات الحميدة التى قد تتجاوز قدر الصدق . .

لو أمعنا النظر قليلاً فى مفهوم الفخر . . لوجدناه صدى لتطلّع النفس البشرية إلى الخروج عن ذاتها وطبيعتها . . وكسر أطواق الفطرة . . والخروج على البشر بصورة قوية كريمة تقف فى مصاف أية سلطة حاكمة . .

هو إذن نوع من النزعة الفردية (النرجسية) والذى يعُرفه المعجم الفلسفى(بأنه اتجاه سائد لدى أحد الناس يعمل من خلال آرائه وسلوكه على تأكيد ذاتيته إما عن أنانية أو طموح أو كبرياء . . وهو دأب الأفراد الذين يحسّون بذواتهم إحساسًا قويا . . والنزعة الفردية مذهب فلسفى اجتماعى وسياسى يرى فى الفرد أنه أساس كل حقيقة والمقصود بالقيم جميعا . . ومن جهة أخرى تكون المقابل لمذهب الدولة من حيث هى دعوة لتضييق سلطان الدولة) . .

فالفخر بالذات إذن يعنى أن صاحبه ينظر إلى نفسه باعتباره محور الكون . . يعدد صفاته الحسنة ويتغاضى عن صفاته السيئة . .

ولأن العرب بطبيعتهم يميلون إلى العزة والأنفة والتسلط والتفوق على الغير . . فقد أمعن الشعراء فى تضخيم هذه الصفات وتجسيدها حول الذات بشكل يفوق درجة الصدق ويصل إلى درجة الكبرياء والغرور . .

ولسنا بصدد تعداد ألوان الفخر لدى الشعراء . . فنحن يمكن أن نضعها فى دوائر عدة مثل : الفخر الشخصى أو الذاتى . . والفخر القبلى . . والفخر الحزبى . . والفخر العقائدى . . والحماسة الدينية وغيرها من الدوائر . .

لكن مايهمنا هنا ويقترب من هدف دراستنا هو اللون الأول ، أى فخر الشاعر بنفسه وذاته وشخصيته ، وكيف يحسّ بذاته إحساسًا قويا يقف أمام سلطة الدولة من أجل تضييقها عليها . . واحتوائها له . .

ونلاحظ أن المبالغة الشديدة فى مدح الذات تقابل كذلك المبالغة الشديدة فى مدح السلطان . . ومن ثم يتصل الفخر الذاتى - على هذا النحو - بفن المديح . . أى أن الشاعر المداح يضفى على ممدوحه صفات ومبالغات قد لا تكون فيه . . من أجل العطاء والجوائز . . وكذلك يفعل الشاعر مع نفسه حين يفاخر . . فهو يمدح نفسه بصفات ومبالغات قد لا تكون فيه . . لكنه حينما يفعل ذلك إنما يقصد أن يضع نفسه فى مكانة واحدة (متقابلة) مع مكانة السلطان . ليكون هو نفسه صاحب صفات خاصة . . وتكون له سلطة الشعر التى تجعله فى عيون الناس موضع تقدير واحترام . . وكأنه بذلك ينال عطاء معنويًا . . بدلاً من العطاء المادى الذى يناله من السلطة . .

والأمر يتضح أكثر حينما يكون لدى الشاعر عيب أو نقص عضوى

أو خلقى . . أو يكون فى درجة اجتماعية دنيا . . فيخشى أن يكون موضع سخرية الناس . . فيبادر هو ويطلق لسانه بالسخرية والفخر ليحمى نفسه من سخرية الناس . . وكأنه بذلك يفرض على الآخرين سلطته اللسانية .

وقد ساعد على ظهور الفخر فى المجتمع العربى تميز هذا المجتمع بالجدب وقلة الماء والفقر والحياة الصعبة . . وقسوة السماء على الأرض . . ومن ثم جاء فخر الشعراء بالفروسية والبذل والعطاء ومساعدة الفقراء وعزة النفس والترحيب بالضيف وإيقاد النار ليلاً لجذب الجياع . . والشرف والإباء والعفو عند المقدرة . . والصلابة فى الأخذ بالثأر وغيرها من الصفات الحسنة . .

وقد اتسم **العصر الجاهلى** بسمات خاصة جعلت الشعراء يقبلون على الفخر بذواتهم وقبائلهم وأمجادهم . . ولا شك أن أسواق العرب كانت مجالاً خصبًا لتلك المواقف التى تحدث فيها المنافرات بين الشعراء . .

وينظر النقاد إلى **الشعراء الصعاليك** على أنهم قد قدموا نموذجًا للفخر الذاتى . . والتفرد بالصفات الحميدة فى مجتمع الفاقة والحاجة والتشرد . .

ومن يقرأ لامية الشَّنْفَرَى يجدها مملوءة بالاعتزاز بالنفس والشرف والكرم وإيثار التراب على طعام المتفضلين . . وفيها يقول :

وفى الأرْض مَنْأى للكريم عن الأذَى

وفيها لمن خاف القِلَى متعزَّلُ

لعمرك مافى الأرضِ ضيقٌ على امرئ

سرى راغبًا أوْ راهبًا وهو يعقلُ

وكلّ أبىّ باسلٌ غير أننى

إذا عرَضت أولى الطرائد أبْسَلُ

وإن مُدّت الأيدى إلى الزاد لم أكنْ

بأعجلهم إذ أجْشَعُ القومِ أعْجَلُ

وما ذاك إلا بسْطةٌ عن تفضُّلٍ

عليهم . . وكان الأفضلَ المتفضِّلُ

وإنى كفانى فقْدُ من ليْس جازيًا

بحسْنى ولا فى قربه متعلّلُ

أما عروة بن الورد زعيم الصعاليك فهو رجل المبادئ القائمة على محبة الغير . . والعطف على البؤساء :

إذا قيل يا بابنَ الورْد أقْدمْ إلى الوغى

أجبتُ فلا قانى كمىٌّ مَقارعُ

بكفّى من المأثورِ كالملح لونُه

حديثٌ بإخلاص الذكورةِ قاطعُ

فـلا أنا مما جـرّت الحـرب مُـشْـتك

ولا أنا مما أحـدثَ الدهرُ جـازعُ

ولا بصـرى عند الهـيـاجِ بطامحٍ

كـأنى بعـيـرٌ فـارقُ الشـوْل نازعُ[1]

أما **السموءل** فقد قيل عنه إن العرب كانوا ينزلون به ضيوفًا فيمتارون فى حصنه . . وكان يقام فى هذا الحصن سوق . . وإليه التجأ امرؤ القيس فأودعه دروعه وأسلحته وابنته يوم رحل إلى القسطنطينية يستنجد بقيصر الروم ويسأله النصرة على قتله أبيه من بنى أسد . . فلما مات فى طريق عودته علم بذلك الحارث بن أبى شمّر الغسّانى فأقبل يطلب دروع امرئ القيس وأسلحته . . فتحصن السموءل منه وأبى أن يسلمه الوديعة . وحدث أن كان ابنه فى الصيد فقبض عليه الحارث وجاء به إلى الحصن على مرأى من أبيه وقال : إنى قد أسرت ابنك فادفع إلىّ الدروع وإلا ضربت عنقه . . فأبى السموءل أن يسلم الأمانة لغير صاحبها وآثر قتل ولده . . على أن يخون العهد ويسىء الوفاء والصدق . . وفى ذلك يقول السموءل :

بنى لى عـاديًا حـصنًا حـصـينًا

وعـينًا كلمـا شـئتُ استـقـيـتُ

---

(١) الشول : الإبل .

وأوصى عــــاديًا قـــدمًـــا بأن لا

تُهـــدِّم يا ســـمـــوءل مـــا بنيْتُ

وفـــــــيتُ بـأدرع الـكـنـدى إنـى

إذا مـــا خـــان أقـــوامٌ . . وفـــيْتُ

وضرب بالسموءل المثل فى الوفاء . .

ويقول مفتخرًا :

إذا المرءُ لـم يدنَسْ من اللؤمِ عِــرضَـــه

فكل رداء يـرتـديـه . . جـــمـــيـلُ

وإن هو لـم يحملْ على النفس ضيْـمَـهـا

فلَيْس إلى حُـــسْنِ الثناء ســبـــيلُ

تُعــــيّـــرنـا أنا قـليـلٌ عـــديدُنَـا

فـــقـلـت لهـــا إن الـكـرامَ قـليـلُ

مـــا قلَّ من كـــانت بقـــاياه مـــثلنا

شــبــابٌ تسَــامى للعـــلا وكـــهـــولُ

فنحن كـــمـــاء المزْن مـــا فى نصـــابنا

كـــهـــامٌ ولا فـــينا يُعَـــدُّ بخـــيلُ

ومـــا أخْـــمـــدت نار لنا دون طارقٍ

ولا ذمَّــنــا فــى الــنــازلــيــن نــزيــلُ

أما طرفة بن العبد فقصة مقتله حافلة بالدلالات النفسية التى تنم عن ذات تعشق الكبرياء والجرأة والتمرد الفكرى وقول الحق ولو على نفسه . . تلك البداوة الأصيلة التى ترى وتدرك كل شىء بمعيار الأخلاق الرفيعة تجعله شاعراً يتسنّم السلطة العاطفية لكل من يقرأ قصته . . حتى أسماه النقاد الفتى ابن العشرين . . وهو القائل :

والإثـــم داءٌ لـــيـــس يُـــرجـــى بـــرؤُه

والبـــرّ برءٌ ليس فـــيـــه مـــعْطبُ

والصـــدقُ يألـفـــه الكريمُ المرتجى

والكذْبُ يـألفُـــه الدنىء الأخـــيبُ

وهو بهذا يتمرد على واقعه الذى يعيشه والذى يسوده الكذب والخداع والظلم والإثم . .

أما **عمرو بن كلثوم** فإن قصته مع عمرو بن هند وفخره بنفسه وبقومه تفوق أى معيار للصدق حتى إنه يقول :

إذا بـلـغَ الـفـطـامَ لـنـاصــــــــــبىّ

تخـــر له الجـــبـــائرُ ســـاجـــدينا

وقد كان هو نفسه سيد قومه بعد أبيه . . وكان فتى لايزال . .

أما فروسية **عنترة**، وتحديه للونه وطبقته الاجتماعية جعله ذلك كله يتسنم قمة الشعر ويبدع معلقته الشهيرة بين معلقات السادة الشعراء . .

هلاّ سألت الخيلَ يا ابنةَ مالك

إن كنت جاهلةً بما لم تعلمِ

يخبْرك من شهد الوقعيةُ أننى

أغشى الوغى واعفّ عند المغنم

ولقد شفى نفسى وأذهب سُقمها

قيلُ الفوارس ويْك عنتر أقدمِ

ويحقق **عنترة** لنفسه الحرية . . ويرتقى فى مدارج السلطة ليكون سيدًا بعد أن كان عبدًا . . ويملك آفاق السيادة أمام قومه وأعدائه . .

. . . .

وينغمس الشعراء فى **العصر الإسلامى الأول** فى الدعوة الجديدة ينافحون عنها وتذوب الذات فى الجماعة . .

ثم يتحزّب المجتمع ويتشتت فى **العصر الأموى** ويتسابق الشعراء بالفخر بأحزابهم وعقائدهم فى صراع حول كرسى السلطة والإمارة . .

وحينما أقبل **العصر العباسى** دار الفخر حول موضوعات تتعلق بالفكر والرأى والحكمة والتحرر والشجاعة الحكيمة والحزم . . والأصل العريق والشاعرية .

إنها حياة واسعة الأفق . . ضمت عناصر أجنبية شعوبية تضمر شراً للعرب . . وعلى ذلك تسابق الشعراء فى الفخر بذواتهم وصفاتهم لعلهم يصيبون مظهراً من مظاهر السلطة الفنية .

كان **بشار من** أصل غير عربى . . لهذا مهّد بشعره لذاته وعاهته لعله ينال عند الناس مكانة يخافونه فيها ويحسبون للسانه ألف حساب . .

لقد نال شهرة فى عصره لم يحظ بها شاعر آخر . . وتحدى عماه وعجزه . . وانطلق يفاخر بذاته فى عناد :

أنا المُرعَّثُ لا أخْفى على أحد

ذرّت بىَ الشمسُ للدانى وللنائى

والرعاث هو القرط أو الزينة تعلق فى الأذن وقد لقب بشار بالمرعث لرعاث كانت له فى صغره فى أذنه . . وهذا يدل على الخيلاء والكبرياء . . ورعثة الديك تاجه ولحيته . .

وقال بشار يخاطب يحيى بن صالح يهجوه وينعته بالحمق ويدل بنفسه :

يغدو الخليفةُ مثلى فى محاسنه

ولسْتَ مثلِى فنمْ يا ماضغَ الماء

وهو صاحب العقل والحصافة والثقافة الواسعة ورجل الوقار والفكر . .

يا سلْم إنى امــــرؤٌ يوقّـــــرنى

حِلمى إذا القـــومِ فى الخنَا وثبـــوا

بل نجده يفاخر بأصله غير العربى فى شعوبية واضحة قاصداً بها التفوق على الجنس العربى :

هل من رســـولٍ مُـــخـــبـــرٍ

عنى جـــمـــيعَ العـــربِ

بـأنــنى ذو حــــســب

عــــالٍ علـى ذى الحـــــسَبِ

جــــدى الذى أســـمُـــو به

كـــســـرى وســـاســـانُ أبِى

وهو وإن حقد على حظه . . وكره نفسه وحياته . . وشعر فى قرارة نفسه بالنقص . . فقد حفل شعره فى الفخر بالسخرية اللاذعة مثل هجائه يحصِّن بها نفسه ضد سخرية الناس :

قـد أذْعَـرُ الجنَّ فى مـسـارحـهـا

قلبى مــضىءٌ ومِــقْــولى ذربُ

وإذا كان بشار شعوبيًا فى فخره فإن **البحترى** يفخر بذاته ويدلّ بنفسه على بنى مجتمعه . . ويفخر بقبيلته وأمجاده . . ومن ذلك قوله :

سائل الدهرَ مذ عرفناه هل يعر

فُ منا إلاّ الفعالَ الحميدا

لم نزلْ قطّ مذ ترعرعَ نكسُو

ه ندىً لينًا وبأسًا شديداً

فهو من مجدنا يروحُ ويغدو

فى علاً لا تبيدُ حتى تبيدا

وحينما يفخر بشاعريته يصرح بقوله وكأنه يتربع فوق سلطة الشعر :

وأنا الذى أوضحتُ غير مدافعٍ

نهجَ القوافي وهى رسمٌ دارسُ

ولم يكْف ابن **الرومى** أن حار فيه النقاد . . بل جعل من نفسه صاحب مناقب متعددة . . فهو يعدل عن المفاخرة المألوفة إلى تباه غريب بوجه ذى صفحتين تتجلى فيه طبيعة جامحة تقود صاحبها إلى الإسراف فى أحاسيسه عندما يسخط ويرضى . . ويعترف بذلك فى قوله :

أنا ذو القصْد غير أنّى متى آ

نستُ جوراً رأيتَ لى غُلواءَ

والحليمُ العليمُ من يُحسن الإ

يقادَ بدءًا ويحسنُ الإطفاءَ

والطبـيـبُ اللبـيـبُ من يُتـبعُ الدّا

ءَ دواءً يشــفــيــه لا الداءَ داءَ

أنا ليثُ الليـوث نفـسًـا وإن كنـ

تُ بجـســمى ضئـيلةً رقـشـاءَ

أنا ذو صـفـحـتـيْن ملسـاءَ حسنا

ءَ وأخـرى . . تمسّـهـا خـشْناءَ

خـاشعٌ تارةً وجـبـارٌ اخـرى

فـتـرانى أرضًـا وطورًا سـمـاءَ

ونلاحظ أن الفخر عند ابن الرومى كان وسيلة يواجه بها سوء نظر الناس إليه . . فهو فى نظر الممدوحين الجدير بالالتفات إليه دون سائر الشعراء لأنه مختلف عنهم :

شعرىَ شعرٌ إذا تأملـه الإنسانُ ذو العقـل والحجـى . . عَبـدَهْ
أو يقول :

ومـتى مـا أردتُ قـارضَ شـعـرٍ

كنتُ ممن يسَـاجلُ الشـعـراءَ

ومـتى مـا خطبتُ منى خطيـبًـا

جل خطْبى فـفـاق بى الخطبـاءَ

ومـــتى حـــاول الرســـائلَ رسْلى

بلّغـــتنى بلاغـــتى البلغـــاءَ

هو فى نظر نفسه فوق كل الشعراء والخطباء يحتل عرش الشعر والكلمة ومن ثم خافه الشعراء وخافوا لسانه . .

أما **فخر المتنبى** فقد سبق ذكر طرف منه فى مجلس سيف الدولة وكيف سخر منه أبو فراس محاولاً إثارة الأمير ضده ، خاصة حين قال :

أنا الذى نظرَ الأعْـــمى إلى أدبى

وأسـمعتْ كلمـاتى مَنْ به صـمَمُ

ثم هو يزداد فخراً بذاته :

ما أبعد العيبَ والنقصانَ عن شرفى

أنا الثـريا وذان الشـيبُ والهـرَمُ

الخـــيل والليل والبـيـــداءُ تعــرفنى

والسيف والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

ويثور أبو فراس ويسأله : ماذا أبقيت للأمير . . لأن هذه كلها صفات لا تجتمع إلا فى أمير أو سلطان . . لكنه يزداد تيهاء وكبرياء . .

سـيعلم الجـمعُ ممّن ضمَّ مـجلسُنا

بأننى خـيــر من تسْـعى به قــدمُ

أما «**أبوفراس**» فقد كان أميرًا بالطبيعة . . وكان شعره فى معظمه حماسيًا يعتز فيه بنفسه وشجاعته وإقدامه وعلو همته وأمجاد قومه :

وكيف ينتصفُ الأعداءُ من رجلٍ
العزّ أوّلُه والمجدُ آخرُه

أو يقول :

إنى أغارُ على مكانى أن أرىَ
فيه رجالاً لا تسُدّ مكانىِ

أو يقول :

وأنا ابنُ من شادَ المكارمَ وابتَنىَ
خططَ المعالىِ حيثُ حلّ الفرقدُ
وأنا الذى علمَ الأنامُ بأنه
لم ينْمه إلا كريمٌ سيدُ
والفخرُ يقسمُ أننا أربابُه
دون البريةِ والمكارمُ تشهدُ

أو يقول :

سيذكرنى قومى إذا جدّ جدّهم
وفى الليلة الظلماءِ يُفتقدُ البدرُ

أما **أبو العلا المعرّى** فقد شابه بشارًا فى محنته لكنه كان أشد تحديًا

وإحساسًا بهذه المحنة . . حيث استند إلى طاقته الشعرية والفكرية ولم يلجأ إلى أبواب الخلفاء يعينونه على سلطة الشعر . .

يقول أبو العلاء :

ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعلُ
عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ
وقد سار ذكرِى فى البلادِ فمن لهم
بإخفاء شمسٍ ضوؤها متكاملُ
وإنى وإن كنتُ الأخيرَ زمانُه
لأتٍ بما لم تسْتطعه الأوائلُ

وجاء أبو العلاء بما لم يأت به الأوائل بالفعل . . وكانت فلسفته الخاصة معينة له على تبوء المكانة الأدبية والسلطة الشعرية التى بلغها . .

وهذا الشاعر **الطغرائى** يبدع قصيدة شهيرة فى الفخر عرفت بلامية العجم يقول فيها :

أصالةُ الرأى صانتنى عن الخطَل
وحِليةُ الفضل زانتنِى لدى العطَل

مـــجـدى أخـــيــرًا ومـــجـدى أولاً شـــرعٌ
والشمسُ رأدَ الضّحى كالشمس فى الطَّفَلِ

فـــــيـم الإقـــــامـــــةُ بالزوراءِ لا سكنى
فيـهـا ولا ناقتى فيـهـاولا جملى

. . . .

ولا نود أن نسترسل فى نماذج أكثر من الفخر الذاتى . . لكننا أردنا أن نسوق ما يؤكد رؤيتنا باعتباره يجسّد سلطة الشاعر نفسه لنضيفها إلى ألوان السلطة التى يواجهها الشاعر . .

ويبدو أن الفخر الذاتى عند العربى أخذ يتقلص ظله شيئًا فشيئا فى العصور التالية لانتشار الحضارة الحديثة . . وسيادة الرؤية الجماعية فى المجتمعات وازدياد الوعى وسلب الشعراء مواقعهم . . حتى جاء عصر **البارودى** الذى حاول أن يتشبه بأبى فراس فى فخره الذاتى . . فأبدع فخرًا كان غريبًا على عصره ومن ذلك قوله :

ملكتُ عُقاب الملكِ وهى كسيرةٌ
وغـادرتُهـا فى وكـرِها وهى طائرُ

ولو رُمتُ مـا رام امـرؤٌ بخـيـانة
لصـبَّـحنى قَـسْطٌ من المال غـامـرُ

ولكنْ أبتْ نفسى الكريمـةُ سوءةً
تعـابُ بهـا والدهرُ فـيـه المعـايرُ

أنا المرءُ لا يُثنيـــه عن دركَ العُـــلا

نعــيمٌ ولا تعــدو عليــه المفــاقِــرُ

. . . .

ومـجـمل القـول هنا . . ومن خـلال تلك الوقـفـات الخـاطفـة المتنوعـة . . إن الفـخر الذاتى كـان يمـثل لـدى الشـعـراء ذلك الجسر الموازى لمديح السلطة . . فالشاعر يمدح السلطان بنفس المبالغة التى يفاخر بها بنفسه . . وقد تكون تلك المبالغة من قبيل تضخيم الذات لدى الشاعر . . وقد تكون بمثابة الحماية من سخرية الناس . . وقد تكون سعيًا وراء اكتساب سلطة حتى لو كانت وهمية - وهى سلطة الكلمة أو الشعر - وقد تكون تحديًا ومقارعة للحاقدين والحاسدين والأقران من الشعراء . .

تعددت إذن الدوافع التى تكمن وراء الفخر الذاتى . . لكنها جميعًا تجتمع على هدف مشترك ألا وهو الطمع فى بلوغ مكانة اجتماعية حتى لو كانت هذه السلطة على الحجارة !

على أن الشعراء كانوا يخجلون غالباً من الاستغراق فى مدح الذات والمبالغة فى الفخر الشخصى . . وسرعان ما ينتقلون إلى توسيع الدائرة فيفخرون بأمجاد أقوامهم . . وبالحروب والانتصارات . . والخلق العربى . . والكرامة والشهامة والفروسية وما يماثل ذلك من صفات عامة . . فيخرج الفخر عن دائرة الذات الخالصة إلى دوائر أخرى أبعد عن هذا الطمع الذى أشرنا إليه .

ويبدو أن العصر الحديث لم يعد يحتمل هذه النرجسية أو النزعة

الفردية الطاووسية التى كان عليها الشعراء . . بل صار يمقتها مقتًا . . حتى لو كانت تتعلق بسلوك الشاعر وليس بإبداعه . . مهما كان حجمه فى ساحة الشعر . . وبنظره حصيفة لا تغيب عن القارئ نستطيع أن نضع أيدينا على بعض أصحاب هذه النرجسية العصرية الذين امتطوا جواد الشهرة . . فأهدروا فى سبيل ذلك طاقتهم الفنية . . بالرغم من أن الساحة اليوم تتسع لجميع المذاقات والقامات . .

الهجاء السياسى والاجتماعى

١ ـ العصور الأولى

إذا كنا قد انتهينا فى الوقفة السابقة إلى أن مديح الشعراء للسلطة كان فى مجمله وسيلة لاستمالة الممدوح وترغيبه فى العطاء ومنح الجوائز . . فيمكننا أن نقول إن هجاء الشعراء للسلطة أيضًا كان فى مجمله وسيلة للإرهاب وحمل السلطة على العطاء خوفًا من انتشار ما يقوله الشاعر بين الناس . .

وكأن دوافع المديح والهجاء كانت واحدة وإن اختلفت الأساليب التى يتخذها الشاعر لتحقيق هذه الرغبات التى ينشدها الشعراء . .

وما دام الشاعر يمتلك طاقة شعرية كبيرة . . وقدرة على التعبير . . وأدوات تجعل منه صوتًا مسموعًا . . فلا فرق آنئذ بين أن يستخدم الشاعر طاقته وقدرته وأدواته فى مديح لسلطة أو إرهابها وهجائها . .

وقد مر بنا كيف كان الشاعر لسان القبيلة وأداة إعلامها . . وأحد حصونها المنيعة ضد أعدائها . . وكيف أن رؤساء القبائل كانوا أصحاب القرار السياسى . . لهذا كان الشاعر يمثل لسلطة القبيلة ذلك البوق الذى ينشر ويفسر ويحلل ويزين أفعالها بقدر ما يلقاه من عطاء

ومكاسب . . ونحسب أن قبيلة بلا شاعر ـ أو شعراء ـ لم تكن لها مكانة . . ولا يعمل لها حساب . .

ويلاحظ القارئ الكريم أننا فى وقفتنا السابقة . . قد قصرنا تنظيرنا للمح المديح على ما يتصل مباشرة بالسلطة الحاكمة ورجالها ـ وليس أى نوع من السلطة ـ ربما لأن هدفنا من هذه الدراسة هو النظر عن كثب خلال هذه العلاقة المتوترة التى تنمو دائمًا بين الطرفين ـ الشاعر والسلطة ـ فوق صفيح ساخن وتحدد قوتها أو ضعفها عوامل نفسية وسياسية تنعكس على تعبير الشاعر فى قصائده . .

ومن ثم فسوف تكون وقفتنا أيضًا مع الهجاء من نفس المنظور ـ أى علاقة الشاعر بالسلطة الحاكمة . . وكيف يتحول الشاعر إلى التقليل من شأن السلطة . . وما دوافعه إلى هجوها واستخراج ما يدينها ويحقرها .

ويبدو أن الشعراء ـ مهما غالوا فى دوافعهم ـ يروقهم عدل السلطة ونظرتها إلى الرعية أو على حد قول الشاعر **الأفوه الأودى :**

والبيت لا يبتنى إلا له عمد
ولا عماد إذا لم تُرْسَ أوتادُ
وإن تجمّع أقوام ذوو حسب
اصطاد أمرهم بالرشد مصطادُ
لا يُصلح الناس فوضى لاسراة لهم
ولا سراة إذا جهالُهم سادوا

تبقى الأمور بأهل الرأى ما صلُحت

فـإن تولت فـبـالأشـرار تنقـادُ

أمارة البغى أن يلقى الجميع لذى الإ

بـرام بـالأمـــر والأذنـاب أنكـادُ

حـان الرحـيلُ إلى قـوم وإن بعُـدوا

فـيـهم صـلاحٌ لمرتاد وإرشـادُ

ونكاد نلمس فى هذه الأبيات مـواصـفـات السلطة الصـالحة . . وبالرغم من ذلك فإن كثيراً من الشعراء لم يكن يعنيه صلاح السلطة أو عدالتها . . بقدر ما كان يعنيه فى المقام الأول أن تكون للسلطة يد سخية كريمة .

وهناك حقيقة واقعة تؤكد لنا أن الهجاء فى العصر الجاهلى كان يتخذ - فى معظمه - العصبية القبلية محوراً يدور حوله . . وسرعان ما يتحول إلى فخر بأنساب القبيلة وهجاء لأنساب القبيلة المعادية . . وقلما نجد هجاء خالصًا لسلطة ما .

ومن هذا القليل النادر نذكر هجاء **المتلمس وطرفة بن العبد** للملك عمرو بن هند حينما وفدا عليه وماطل فى عطائه لهما . .

يقول المتلمس :

قـولا لعـمـر بن هند غـيـر متّـئب

يا أخنس الأنف والأضراس كالعدَسِ

ملك النهار وأنت الليل مُومِسَةٌ

ماء الرجال على فخذيك كالقرِسِ

لو كنت كلب قنيص كنت ذا جُدَدٍ

تكون أرْبَتُه فى آخر المرَسِ

لقوا حريصًا يقول القانصان له

قُبّحتَ ذا أنف وجه ثم منتكسِ

لقد وصفه بأنه غير متئب - أى فاقد الحياء - وأن أنفه أخنس وأضراسه كحبات العدس فى صغرها وسوادها . . وهو فى النهار ملك وفى الليل مثل المومس الفاجرة يتجمد ماء الرجال على فخذيه . . ثم يقول: لو كنت كلب قنص وصيد فيه جدد - أى بقع - فإن المرس - الحبل - يجرك فى آخر الإربة - العقدة - أى أنه أخس الكلاب وقلادته أخس القلائد . .

ويشير الشاعر هنا إلى أنه كان قبيحًا أبرش ذو منظر شاذ . . وتذكر الرواية أن طرفة أيضًا هجاه بعد أن نادمه الملك هو وخاله المتلمس . . وقصة ذلك أن طرفة كان فتى تياهًا معجبا . . فبينما كان يشرب مع الملك أشرفت أخت الملك فرآها طرفة وأعجبته وقال:

ألا يا ثانيَ الظبى الذى يبرق شنفاهُ

ولولا الملك القاعد قد ألثمنى فاه

أى أنه يصرح بأمنيته فى تقبيلها . . فنظر إليه عمرو بن هند نظرة

كادت تقتلعه من مجلسه . . وكان عمرو لا يبتسم ولا يضحك . . وكانت العرب تهابه هيبة شديدة - فقال المتلمس لطرفة حين انصرفا : يا طرفة إنى أخاف عليك من نظرة الملك إليك . .

فلم يكترث طرفة بالأمر . .

ثم إن الملك جعل الشاعرين فى صحابة أخيه قابوس وكان يرشحه للملك من بعده . . ثم أمرهما بلزومه . .

وكان قابوس هذا شابًا يعجبه اللهو . . فركب يومًا للصيد وهما معه يركضان . . ثم كان اليوم التالى فوقفا على بابه النهار كله وهو لا يسمح لهما . . فضجر طرفة وأحس بإهانة شديدة فقال يهجو عمراً وأخاه قابوس :

فليت لنا مكان المْلك عـــمـــرو

رغــوثًا حــول قــبــتنا تخــور[1]

من الزمـــرات أسْــبل قــادمــاها

وضــــرّتهــــا مــــركّنة ذرور[2]

يشــاركنا لنا رخـــلان فـــيـــهـــا

وتعلوها الكبــاش فـــمـــا تنور[3]

---

(١) الرغوث : النعجة المرضع - تخور : تصوّت .

(٢) الزمرات : القليلات الصوف - المركنة الذرور : السمينة التى تدر لبنها .

(٣) الرخلان : الإناث من الضأن - تنور : تنفر .

لعمرك إن قابوس بن هند

ليخلط ملكّه نوك كثير[١]

قسمت الدهر فى زمن رخىّ

كذاك الحكم يقصد أو يجورُ

لنا يوم وللكِرْوان يوم

تطير البائسات ولا تطير[٢]

فأما يومهنّ فيوم نحس

تطاردهن بالحُدب الصقورُ

وأما يومنا فنظلّ ركبًّا

وقوفًا ما نحل وما نسيرُ

وعزم الملك على التخلص منهما . . فيسلم كلا منهما رسالة مطوية ليذهبا إلى عامل البحرين . . يمنحهما مكافأة . .

لكن المتلمس يشك فى نوايا الملك . . ويعطى الرسالة غلامًا فى الطريق يعرف القراءة . . فإذا بها أمر إلى عامل البحرين بقتل حامل الرسالة . . فمزق المتلمس الرسالة وألقى بها فى الماء . . ثم طلب من طرفة أن يقرأ الغلام رسالته لكنه لم يفعل وأبى . . وذهب بها إلى البحرين حيث قتل هناك فى السادسة والعشرين من عمره . . فكان مقتله أسطورة من أساطير العرب .

---

(١) نوك : حماقة .

(٢) الكروان : الطائر المعروف (الكروان) .

أما المتلمس فبعد أن اكتشف ذلك هرب إلى الشام وهجا عمْرًا مرة أخرى فى قصيدة يقول فيها :

أطردتنى حذر الهجاء ولا
والـلات والأنصاب ما تئِلُ[1]
ورهنتنى هندًا وعرضَك فى
صحف تلوح كأنها خِلَلُ[2]
شر الملوك وشرها حسبًا
فى الناس من علموا ومن جهلوا
بئس الفحولة حين جدّ بهم
عرْك الرهان وبئس ما نَجِلوا
أعنى الخئولةَ والعموم فهم
كالطبن ليس لبيته حَولُ

وما يهمنا هنا أن الشاعر صرح للملك أنه طرده خوفًا من هجائه . . فلم يسلم منه وواضح أن دوافع هذا الهجاء من المتلمس أو من طرفه هو مماطلة الملك فى العطاء .

أما عمر بن كلثوم ذلك الغلام الذى ساد قومه وهو فى الخامسة

---

(١) تئل : تنجو .

(٢) رهنتنى هند أو عرضك : عرضتهما لهجائى - خلل : نقش فى باطن السيف .

عشرة فقصته مع الملك عمرو بن هند أيضًا مشهورة . . كان نتيجتها تلك المعلقة التى هجاه بها بعد أن قتله حينما أهانت أم الملك ليلى أم عمر بن كلثوم وفيها يقول هاجيا ومفاخرًا :

بأى مـشـيـئـة عـمـرو بن هند
تـطيعُ بنـا الوشـــاة وتـزدرينـا

تـهـــددنا وأوعْـــدنا رويـدًا
مـــتى كنا لأمك مـــقـــتـــوينا

فـــإن قناتنا يا عـــمـــرو أعـــيت
على الأعـــداء قـــبلك أن تلينا

ونحن الحـــاكـــمـــون إذا أطعنا
ونحن العـــازمـــون إذا عُـــصـــينا

ونحن التـــاركـــون لما ســـخطنا
ونحن الآخـــذون لما رضـــــينا

وقـــد علم القـــبـــائلُ من مـــعـــد
إذا قـــبـــب بأبطحـــهـــا بنينا

بأنا المطعـــمـــون إذا قـــدرنا
وأنـا المـهـلـكـون إذا ابـتـلـيـنـا

إذا مـا الملك سـام الناس خـسـفًـا
أبـيـنـا إن نقـــــر الذل فـــــينا

مــلأنا البـــر حـــتى ضـــاق عنا

ونحن البـــحـــر نملؤه ســـفـــينا

إذا بـلـغ الـفـطـام لـنـا صـــــــبى

تـخـــر لـه الجـــبـــابر ســـاجـــدينا

وبغض النظر عن المبالغة فى الفخر . . فما يهمنا من هذه القصيدة الطويلة أن الشاعر هنا . . وإن لم يكن دافعه العطاء ـ كان ثائرًا على ظلم السلطة وفسادها . . فثأر لكرامته وكرامة أمه وكرامة قبيلته . . وواجهها بشجاعة وبلا خوف . . فأخذ يحط من قدر عمرو بن هند وهو يفاخر بنفسه وقبيلته وفضائل قومه . .

ومن ثم ندرك أن الهجاء هنا هو الوجه الآخر للفخر . . أو لنقل إننا نفهم من فخره أنه يُدل بنفسه ويرفع من شأنها ويسقط على ما عداها انحطاط القدر . .

أما **الحطيئة** فقد كان مثلاً صارخًا للشاعر الهجّاء الذى يرهب السلطة ويرغم السلطان على العطاء خوفًا من لسانه . .

يقول عنه الأصمعى : كان الحطيئة جشعًا سئولاً ملحفًا دنىء النفس كثير الشر قليل الخير . . بخيلاً . . قبيح المنظر . . رث الهيئة . . مغمور النسب . . فاسد الدين . . وما تشاء أن تقول فى شاعر من عيب إلا وجدته . . وقلما نجد ذلك فى شعره . . وقد يكون الأصمعى مبالغًا فى نعته بهذه الصفات . . لكنه يستدرك ويقول : قلما نجد ذلك فى شعره . . أى أن شعره ـ مهما هجا وسخر ـ لا تجد فيه هذه الصفات الدنيئة . .

حقا كان الحطيئة يمدح سادة القبائل فى شعره . . وحين يكفون عن صلته يهجوهم . .

وقد تكون حادثته مع الزبرقان بن بدر هى التى شوهته فى أعين النقاد . . ذلك أنه لقيه فى عهد عمر بن الخطاب يؤم المدينة وكان على صدقات قومه . . فلما عرفه دلّه على داره حيث زوجه وعشيرته . . فنزل بأهله . . وفزع بنو أنف الناقة - إذ كانوا ينافسون عشيرة الزبرقان - حين علموا أن الحطيئة نزل عنده . . وعملوا على إفساد العلاقة بين الحطيئة وزوج الزبرقان وكانت قد تراخت فى استقباله والترحيب به . . وأتيحت بذلك الفرصة لبنى أنف الناقة فضموا الحطيئة إليهم . . وبالغوا فى إكرامه . . فانطلق يثنى عليهم معرضا بالزبرقان :

جــــار لقـــوم أطالوا هوْن منزلة
وغــادروه مـقـيـمًـا بين أرمـاسِ

ملّوا قــــراه وهرّته كـــــلابهم
وجــرَّحــوه بأنيــاب وأضــراسِ

دع المكارم لا ترحل لبـغـيـتـهـا
واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

ورفع الزبرقان أمره إلى الخليفة عمر . . فحكَّم حسان بن ثابت فى الأمر . . فلما حكم بأن الحطيئة هجا الزبرقان . . حبسه عمر . . فأخذ يستعطفه بأبيات يقول فيها :

مــاذا تقــول لأفــراخ بذى مــرخٍ
زغب الحواصل لا ماء ولا شجرُ

ألقيت كاسبهم فى قعْرَ مظلمة

فاغفر عليك سلام الله يا عمرُ

أنت الأمين الذى من بعد صاحبه

ألقت إليك مقاليدَ النهى البشرُ

لم يؤثروك بها إذ قدّموك لها

لكن لأنفسهم كانت بك الخيَرُ

ولان قلب عمر للحطيئة وهو يشكو له فقر أولاده الفقراء . . فعفا عنه بعد أن أخذ عليه العهد ألا يعود إلى الهجاء . . ويقال إن عمرًا اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم . .

ومن طريف مواقفة المتناقضة أنه قال يمدح أهل القُريَّة ـ وهى قرية فيها بنو ذُهْل :

إن اليمامةَ خيرُ ساكنها

أهل القُريَّة من بنى ذُهْلِ

الضامنون لمال جارهمُ

حتى يتم نواهضُ البقْلِ

قوم إذا انتسبوا ففرعهمُ

فرعى وأثبت أصلُهم أصلى

إنه هنا يمدحهم حتى يعطوه شيئًا . . ويدل على هذا البيت الثانى

حيث ينتظر الحطيئة حتى يأتى موسم نواهض البقل - أى الخصب - .

وينتظر الحطيئة ويحل الموسم ولا يعطونه ولا يصلونه فقال :

إن اليــمــامــة شــر ســاكنهــا

أهـل الـقـــــريـة مـن بنـى ذُهْلِ

قـــــوم أبـاد الـلـه غـــــابرهـم

فـجـمـيـعـهـم كـالحـمَّـر الطُحْلِ

وهو هجـاء بعـد مـدح . . وكل مـا فـعله أنه بدل بعض الكلمـات والصفات لا لشيء إلا لأنهم منعوه ولم يعطوه شيئًا . .

ويحكى عنه فى ديوانه أنه مر على عتيبة بن النهاس العجلى - وكان من وجـوه بكر بن وائل - وكـان يضـرب قـبـابًا على بابه من أدم فى الجاهلية للأضـياف . . فـدخل عليـه الحطيـئة فى ملبس لا يعرفـه . . فقال : أعطنى . .

قال عتيبة : ما أنا فى عدد فأعطيك من عدده . . وما فى مالى فضل عن قومى . .

قال : فلا عليك . .

وانصرف الحطيئة . . فأقبل على عتيبة رجل من قومه صائحًا :

- لقد عرضتنا للشر . . إنه الحطيئة . .

قال عتيبة : أسرعوا وردوه . .

فلما أتوا به قال له : بئس ما صنعتُ أيها الشاعر . . فاعذرنى . .

وما استأنست استئناس الجار . . ولقد كتمتنا نفسك كأنك كنت معتلاً علينا . . اجلس فإن لك فينا ما يسرك . . فقد عرفنا السبب الذى تمت به وأنت جار . . فأنت أشعر العرب . .

قال الحطيئة : ما أنا بأشعر العرب . .

قال عتيبة : فمن أشعر العرب .

قال : الذى يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه

يفِــرْه ومن لا يتّق الشــتم يُشــتمِ

فقال عتيبة : أما إن هذه الكلمة من مقدمات أفاعيك . .

فانطلق معه غلام وعرض عليه الخز والطعام فلم يقبل ذلك . . وأشار إلى الأكيسة والكرابيس الغلاظ حتى أوقر ما أحب . . ولم يبلغ ذلك مائتى درهم . . فرجع إلى قومه . . فلما رأوه ورأوا ما جاء به وأخبرهم بما صنع لاموه وقالوا :

ـ أبعث معك غلامه وهو أكثر العرب مالا فأخذت القليل الخسيس وتركت الجزيل العظيم . .

فأفاق الحطيئة على الحقيقة فقال :

سئلت ولم تبخل ولم تعط طائلاً

فــسيــان لاذمٌّ عليك ولا حــمــدُ

وأنت امرؤ لا الجود منك سجيةٌ

فتعطى . . وقد يعدى على النائل الوجدُ

فلم يسلم عتيبة من هجائه هكذا . .

ونختتم موقف الحطيئة من السلطة بهجائه لبنى بجاد العبسيين يقول فيه :

قـبَح الإلهُ بنى بجـادٍ إنهم

لا يصلحون وما استطاعوا أفسدوا

بلد الحفيظة واحدٌ مولاهم

جُمُدٌ على من ليس عنه مجْمَدُ

من كان يحمد فى القِرى ضيفانه

فبنو بجادٍ فى القرى لم يحمدوا

وهكذا وصفهم بالفساد . . ووصف مولاهم بأنه ذليل لا ناصر له . . جمد بخيل على من لا ينبغى أن يبخل عليه . .

إن الحطيئة مهما تنوعت الدوافع يفلت منه دائمًا المعنى الخفى فيصير ساطعًا فى شعره بلا خفاء . . وهو الطلب والعطاء . . ليكون هو مقياس الناس لديه . . وقيمة كل سلطة فى عينيه . .

* * *

ونطلق مع الزمان لنجد أنفسنا أمام نقائض **جرير والفرزدق** . . وكان لكل منهما حلقة ومكان ينشد فيها ويتناقل الناس شعره . .

وأحسب أن هذا اللون لم يخترعه جرير والفرزدق لأن له جذوراً سابقة . . فقد عرف تاريخ الأدب العربى ألوانًا متعددة من المفاخرات الشعرية والمنافرات فى الخطابة . . ثم شهدت العصور الإسلامية هذا اللون فى بداية الدعوة الإسلامية . . حيث يطلق ابن هشام مصطلح النقائض على تلك القصائد التى دارت حول غزوة بدر بين المسلمين والمشركين . .

ومن ذلك أن حسان بن ثابت عرّض بالحارث بن هشام قائلا :

إن كنت كــاذبةَ الذى حــدثتنى
فنجـوت منجى الحـارث بـن هشـامِ
ترك الأحــبــة أن يقــاتل دونهـم
ونجــا برأسٍ طمــرةٍ . . ولجــامِ

فيجيب عليه الحارث بن هشام قائلا :

الله أعلـم مـــا تركت قـتـــالهـم
حتى حـبـوْا مُـهْـرى بأشـقـر مُزبدِ
فـصـددت عنهم والأحـبـة فـيـهـم
طمـعًـا لهم بعـقـاب يوم مُـفْـسـد

ويروى أيضًا صاحب السيرة أن عبد الله بن الزبعرى بكَى قتلى المشركين ببدر قائلا :

مـــاذا على بدرٍ ومـــاذا حـــوله
من فـتـيـة بيض الوجـوه كـرامِ

فشمت فيه حسان وصب عليه لعناته قائلا :

ابك بكتْ عـــيناك ثـم تبـــادرت
بـدم تعل ّغـــروبهــــا ســـجــــام

حتى أخذ الصراع السياسى طابعًا جديدًا فى العصر الأموى . .

ونعـود إلى جـرير والفـرزدق لنجـد أن كـلا منهـمـا ـ وإن كـان يبـدأ بشخص الآخر ـ سرعان ما يوسع دائرة هجائه ليشمل قومه وسادته وأشرافه . . وحسبنا نشير إلى قول جرير المشهور :

فـــغضّ الطرف إنك من نميـــر
فـــلا كـعـــبًا بلغت ولا كـــلابا

وساعتها نكس الفرزدق رأسه . .

وفى نفس الحلقـة تهـاجى **النابغـة الجـعـدى** وأوس . . وشـارك الأخطل وكعب بن جعيل والعجاج . .

بل نجد جريرًا يستغل نصرانية الأخطل فى نقائضه له لينفذ بذلك إلى ما يريد حيث يقول :

رجـس يـكـون إذا صـلـوا أذانُـهـم
قرْع النواقيس لا يدرون مـا السُّوَرُ

ومـا لتـغـلب إن عـدّت مـسـاعـيـهـا
نجم يضىء ولا شـمس ٌولا قـمـر

والمقرعين على الخنزير ميسرهم

بئس الجزور وبئس القوم إذ يسروا

* * *

مظهر كريم للشعراء:

هناك ملاحظة عادلة مهمة تتعلق بموقف الشعراء من السلطة . . فقد وجدنا فريقًا منهم لا يسكت عن فساد الولاة وتصرفاتهم المنحرفة . . حين استغل الولاة فى ظل الحكم الإسلامى مناصبهم وخرجوا على قاعدة الأمانة والنزاهة . . فأقبل هذا الفريق من الشعراء على الخلفاء يطلبون منهم أن يجردوا هؤلاء الفاسدين من أموالهم ويحاسبوهم . .

ومن ذلك ما رفعه الشاعر **يزيد بن الصعق** إلى الخليفة عمر بن الخطاب فى قوله :

ألا ابْلغْ أميـر المؤمنين رسالة

فأنت أمين الله فى النهى والأمرِ

وأنت أمين الله فينا ومن يكن

أمينًا لرب العرش يسْلم له صدرى

فلا تدعن أهل الرساتيق والقرى

يسيغون مال الله فى الأدم الوفرِ

فأرسل إلى الحجاج فاعرف حسابه
وأرسل إلى جزء وأرسل إلى بشْرِ
ولا تنسينّ النافعين كليهما
ولا ابن غلاب من سراة بنى نصْرِ
وما عاصم منها بصفر عيابهُ
وذاك الذى فى السوق مولى بنى بدرِ
وأرسل إلى النعمان فاعرف حسابه
وصهر بنى غزوان إنى لذو خُبْرِ
وشبلاً فسلْه المال وابن محرّش
فقد كان فى أهل الرساتيق ذا ذكرِ
فقاسمهمُ نفسى فداؤك إنهم
سيرضون إن قاسمتهم منك بالشطرِ
ولا تدعونى للشهادة إننى
أغيب ولكنى أرى عجب الدهرِ
نئوب إذا آبوا ونغزوا إذا غزوْا
فإنى لهم وفر ولسنا أولى وفْرِ

فاستمع الخليفة عمر وأرسل يحاسب ولاته وعماله الذين ذكرهم الشاعر .

وتزداد شكوى الشعراء فى العصر الأموى لتجاوزات الولاة ومخالفاتهم . .

وهذا الشاعر **الراعى النميرى** يقدم شكواه إلى الخليفة عبد الملك بن مروان حينما أرهق السعاة قوم الشاعر وكلفوهم فوق طاقتهم . . وصبوا عليهم سياط ظلمهم حتى أفقروا أغنياءهم وأهزلوا فقراءهم . . يقول الراعى فى شكواه :

أولىَّ أمر الله إنا معشرٌ

حنفاءُ نسجد بكرةً وأصيلاَ

عربٌ نرى لله فى أموالنا

حق الزكاة منزلاً تنزيلاَ

قوم على الإسلام لما يمنعُوا

ماعونهَم ويضيّعوا التهليلاَ

فادفع مظالم عيّلت أبناءنا

عنا وأنقذ شلونا المأكولاَ

إن السعاةَ عصوْك حين بعثتهَم

وأتوا دواعيَ لو علمتَ وغولاَ

إن الذين أمرتهم أن يعدلوا

لم يفعلوا مما أمرتَ فتيلاَ

ويستغيث الشاعر كعب الأشقرى وهو فى خراسان بالخليفة عمربن عبد العزيز ويخاطبه فى شأن عماله ويصفهم بالذئاب فيقول :

إن كنت تحـفظ مـا يليك فـإنما

عـمـال أرضك بالبـلاد ذئابُ

لن يستجيبوا للذى تدعـو له

حـتى تجلَّدَ بالسـيـوف رقـابُ

وشكا الشاعر **عبد الله بن الزبير الأسدى** الوالى ابن أم الحكم (أخت معاوية) عبد الرحمن الثقفى إلى خاله الخليفة معاوية لأنه اشتد فى أمر الخراج وعامل الناس بالظلم . . فقال :

ألا أبلغ مـعـاوية بن حـرْبٍ

فـقـد ضـرب السـواد فـلا سـوادا

وأن جـبـا لنا خـربت وبادتْ

فـقـد تركت لحَالبِـهَا جـمـادا

فـهل لك إن تدارك مـا لدينا

وترفع عن رعـيـتك الفـسـادا

فـإن أمـينكم لا اللهَ يخـشى

ولا ينوى لأمـتكم سـدادا

إذا مـا قلت أقـصـر عن هواه

تمادى فى ضـلالتـه وزادا

وبلغ الأمر ببعض الشعراء أن هجوا الخليفة نفسه فى جرأة وشجاعة مثلما فعل الشاعر **عتبة الأسدى** حين هجا معاوية واتهمه بالشره فى جمع المال وإفساد الناس . . فقال :

معاويَ إننا بشر فأسْجح
فلسنا بالجبال ولا الحديدِ[1]

أكلتم أرضنا وجذذتمونا
فهل من قائم أو من حصيدِ

فهبنا أمةً هلكت ضياعاً
(يزيد) أميرها و(أبو اليزيد)

أنطمع فى الخلود إذا هلكنا
وليس لنا ولا لك من خلودِ

ذروا حول الخلافة واستقيموا
وتأمين الأراذل والعبيدِ

وهذا الملمح فى الشعر يؤكد إيجابية دوره أمام السلطة . . فلم يقف الشعراء موقف المتفرج . . ولا هم ابتعدوا عن شكوى الناس . . برغم ميل الكثير منهم إلى الهوى من أجل عطاء زائل . .

وربما اتسعت هذه الدائرة قليلاً فى العصر الأموى من خلال شعراء الأحزاب حيث تنافس الشعراء فى إثبات حق الخلافة ووراثتها . .

---

(١) أسجح : سهّل ولِنْ .

وكان الكميت أشدهم وطأة فى ذلك حينما ذم سياسة بنى أمية . . وناصر سياسة آل البيت . . فيقول :

ســـاســـةُ لا كـــمن يرْعى النا
س ســـواء ورعـــيـــةَ الأنعـــامِ

لا كـعـبـد المليك أو كـوليـدِ
أو سليـمـانَ بعـد أو كـهـشـام

ومثلما حدث فى العصر الأموى ـ والأمثلة فيه كثيرة ـ حدث أمر مشابة فى العصر العباسى فقد وصف الشعراء الخلفاء والحكام بأبشع الوصف . . ومن ذلك ما هجا به دعبل الخزاعى المعتصم لتعصبه للأتراك وحمايته لهم :

لقد ضاع أمرُ الناس حين يسوسُهم
(وصيف) (وأشناس) وقد عظم الخطبُ

وإنى لأرجو أن نرى من مغيبها
مطالع الشمس قد يغَصُّ بها الشربُ

وهمك تركىّ عليـه مـهـانةٌ
فـــأنتَ لـه أم وأنـت لـه أبُ

وهذا شاعر آخر يقول :

خليـــفـــةٌ فى قـــفصٍ
بين (وصـــيف) و(بغـــا)

يقــــول مـــــا قـــــالا لـه

كــــمــــا يقــــول البـــبّـــغـــا

وما نود أن نثبته هنا بإعجاب وموضوعية أن فريقاً من الشعراء لم يخش بطش السلطة وجبروتها وتهديدها . . ربما لأن الساحة السياسية كانت تتيح لهؤلاء الشعراء مساحة لحرية التعبير والمناقضة والمطارحة إلى أبعد حد . .

وربما فهم هؤلاء الشعراء معنى الهجاء السياسى على أنه الشكوى إلى الحاكم . . والفخر والحماسة . . وليس الهجاء المقزع الذى يقوم على إرهاب السلطة على العطاء . .

هجاء العباسيين:

كان بشار بن برد يقول : الهجاء المؤلم آخذ بضبْع (عضد) الشاعر من المديح الرائع . . ومن أراد من الشعراء أن يُكرَم فى دهر اللئام على المديح فليستعد للفقر . . وإلا فليبالغ فى الهجاء ليُخاف فيعُطى . .

وروى مثل ذلك القول عن سلْم بن الوليد .

ـ وكان **بشار** قد مدح عقبة بن سلْم بأرجوزته :

يا طَلَلَ الحىّ بذات الصـــمـــد

بالله خــبِّــر كــيف كنتَ بعــدِى

فأثابه عليها بخمسين ألف درهم .

ولما تأخر وكيله على الوفاء بها ثلاثة أيام أمر بشار غلامه أن يكتب

على باب عقبة هذا الشعر :

مـــازال فى منيـــتى من همىّ

والوعـــدُ غمّ فـــأزحْ من غـــمىّ

إن لم تردْ حمْدى فراقب ذمّى

فلما خرج عقبة من داره وقرأ قول بشار قال لوكيله :

ـ هل حملت إلى بشار ما أمرت له؟

قال الوكيل : أيها الأمير نحن مضيقون . . وغداً أحملها . .

قال بشار : زد فيها عشرة آلاف درهم واحملها إليه . . فحملها من وقته .

ـ ويروى أيضاً أن سهيل بن عمرو القرشى كان يبعث إلى بشار بقواصر من تمر كل عام . . فأبطأ عليه فى أحد الأعوام فكتب إليه بشار :

تمركم يا ســـهـــيل در وهل يطمـ

ـعُ فى الدرِ من يدىْ مُـــتَـــعَـــتِّى

فاحبُنى يا سهيل من ذلك التمـ

ـر نواةً تكون قـــــرطاً لبنتىِ

فأسرع سهيل بإرسال التمر إليه مضاعفاً ورجاه ألايزيد على هذا الشعر شيئاً .

ـ ومرة استمنح بشار العباس بن محمد بن على فلم يمنحه فقال يهجوه :

ظلّ اليسارِ على العباسِ ممدودُ
وقلبُه أبداً فى البخلِ معقودُ

إن الكريم ليخفى عنك عسرتَه
حتى تراه غنياً وهو مجهودُ

وللبخيل على أمواله عللُ
زرق العيون عليها أوجه سودُ

ثم يؤكد بشار نظرته للجود وفلسفته له فيقول :

إذا تكرّهت أن تُعطى القَليلَ ولم
تقدر على سعةٍ لم يظهر الجودُ

ـ ويروى أيضاً أن بشاراً كتب إلى إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بقصيدة يمدحه بها ويحرضه ويشير عليه . . فلم تصل إليه حتى قتل إبراهيم . . وخاف بشار من عاقبة أن تشتهر القصيدة . . فقلبها وجعل التحريض فيها على أبى مسلم والمدح والمشورة لأبى جعفر المنصور . . فقال :

أبا مسلم ما طيبُ عيش بدائم
ولا سالمٌ عما قليل بسالمِ

وقد كانت :

أبا جعفر ما طيب عيش بدائِم

وبعد أن أنهى بشار القصيدة قال الأصمعى : إنى رأيت رجال الرأى يتعجبون من أبياتك فى المشورة . . فقال : أما علمت أن المُشَاورَ بين إحدى الحسنييْن بين صواب يفوز بثمرته . . وخطأ يشارك فى مكروهه؟!

فقال الأصمعى : أنت والله أشعر فى هذا الكلام منك فى الشعر . .

ـ ويحكى أيضاً أنه لما ولى صالح بن داود أخو يعقوب بن داود وزير المهدى البصرة . .

قال بشار يهجوه :

همُ حملوا فوق المنابرِ صالحاً

أخاك فضجّت من أخيك المنابرُ

فبلغ ذلك يعقوب . . فدخل على المهدى وقال : يا أمير المؤمنين أبلغ من قدر هذا الأعمى المشرك أن يهجو أمير المؤمنين وسياسته . .

قال : ويحك . . وما قال . .

قال : يعفينى أمر المؤمنين من إنشاده .

وخاف يعقوب أن يقدم بشار على المهدى فيمدحه ويعفو عنه . . فوجه إليه من استقبله فضربه بالسياط حتى قتله ثم ألقاه فى البطيحة . .

وأخبار بشار كثيرة فى سلاطة لسانه ورواياته أكثر . . حتى إنه ـ إن صحت الرواية السابقة ـ قتل بسبب هجائه . .

وربما كان بشار مثالاً صارخاً للشاعر المتكسب الذى يهجو ويرهب من سبق له أن مدحه ـ كما رأينا ـ لامتناعه أو تباطئه عن العطاء . . أو لأنه لم يشبع رغبته كما يريد ويشتهى . .

ومن ذلك الصنف أيضاً نجد الشاعر **ربيعة الرَّقى** يمتدح العباس بن محمد بقصيدة، يقول عنها صاحب الأغَانى إنها لم يسبق إليها حسناً . . وتتسم بالمبالغة الشديدة وفيها يقول :

لو قيل للعباسِ يا ابن محمد

قل لا وأنت مُخلدٌ ما قالَها

ما إن أعدّ من المكارم خصْلةً

إلا وجدتك عمها أو خالها

وإذا الملوك تسايروا فى بلدةٍ

كانوا كواكبها وكنت هلالَها

إن المكارم لم تزل معقولةً

حتى حللتَ براحتيك عقالَها

لكن العباس منحه على هذه القصيدة دينارين فقط بعث بهما إليه مع رسول . .

وكان يستطيع أن يمنحه ألفين . .

فلما نظر الشاعر إلى الدينارين كاد يجن غضباً . . وقال للرسول : خذ هذين الدينارين فهما لك على أن ترد إلىّ الرقعة التى كتبتها من حيث لا يدرى العباس .

ففعل الرسول ذلك وعاد بالرقعة إلى ربيعة فأخذها وكتب فى ظهرها :

مدحتُك مدحةَ السيف المُحلّى
لتجرى فى الكرامِ كما جريْتُ
فهبها مدحةً ذهبت ضياعاً
كذبتُ عليك فيها وافتريْتُ
فأنت المرءُ ليس له وفاءُ
كأنى إذ مدحتك قد زنيْتُ

ثم دفعها إلى الرسول ليضعها خُلسة فى المكان الذى سبق أن أخذها منه خلسة ليقرأها العباس . .

وهذا **أبو تمام** يهجو من سبق له أن مدحهم . . ومن هؤلاء عباس بن لهيطة . . فقد طلب أبو تمام منه مائتى مثقال فشاور فيها زوجته فقالت له : هو شاعر يمدحك اليوم ويهجوك غداً . . فاعتل عليه واعتذر إليه . . ولم يقض حاجته . .

فأخذ أبو تمام يعاتبه أولاً . . ثم حينما لم يفلح انقضّ عليه بالهجاء . . ومن ذلك قوله :

النارُ والعـــارُ والمكروهُ والعطبُ

والقتلُ والصلبُ والمرّان والخشبُ

أحْلى وأعـذبُ من صيْبٍ تجـود به

ولـن تجـــود به ياكلبُ يا كـلبُ

كما هجا أبو تمام أبا المغيث الرافقى بعد أن مدحه كذلك لأنه لم يحقق له ما أراد من المال والوظيفة . . فقد كان أبو تمام كثير الطلب للمال شديد الطمع . .

ومما هجاه به قوله مكذباً نفسه فيما مدحه به أولاً :

عـجباً لقـوم يسـمعُون مـدائحى

لك لم يقولوا : قم فأنت مصابُ

نبـذوا بكذاب مـسليـمـةً فـقـد

وهمـوا وجـاروا بل أنا الكذابُ

وهتكتُ دينى فـاسـتـترتُ بتـوبة

فـأنا المقـــرّ بذنبـــه التـــوابُ

وكان **البحترى** قليل الوفاء لممدوحيه . .

ويقول المرزبانى فى الموشح :

- إن البحترى هجا نحواً من أربعين رئيساً ممن مدحهم منهم خليفتان وهما المنتصر والمستعين . . وساق بعدهما الوزراء ورؤساء

القواد ومن جرى مجراهم من جلة الكتاب والعمال ووجوه القضاء والكبراء بعد أن مدحهم وأخذ جوائزهم .

ويذكر المؤرخون أن البحترى شاعر نقى الكلام مطبوع فى ضروب الشعر سوى الهجاء . . فإن بضاعته نزرة وجيده منه قليل . .

ومن يقرأ ديوان البحترى يجد الهجاء عنده مثل أستاذه أبى تمام أكثره ساقط ليس به فن الشعر سوى قصيدتين إحداهما فى ابن أبى قماش والأخرى فى يعقوب بن الفرج النصرانى . . وما عدا ذلك فهو مقطعات أو قصائد صغيرة قالها غيظاً وسباً فيمن يستحق ذلك من وجهة نظره .

وكان ابنه الغوث يزعم أن السبب فى قلة بضاعته فى الهجاء . . أنه لما حضرته الوفاة دعا به . . وقال له : اجمع كل شىء قلته فى الهجاء . . ففعل . . وأمر بإحرقه ثم قال له : يا بنى هذا شىء قلته فى وقت . . فشفيت به غيظى . . وكافأت به قبيحاً فعل بى . . وقد انقضى أربى فى ذلك . . وإن بقى روى عنى . . وللناس أعقاب يورثونهم العداوة والمودة . . وأخشى أن يعود عليك من هذا شىء فى نفسك أو معاشك لافائدة لك ولا لى فيه . .

قال : فعلمت أنه نصحنى وأشفق علىّ فأحرقته . .

ويدافع أبو قدامه عن موقف الشعراء فى ذلك بقوله :

ـ إن مناقضة الشاعر نفسه فى قصيدتين أو كلمتين بأن يصف شيئاً وصفاً حسناً . . ثم يذمه بعد ذلك ذماً حسنا بينا . . غير منكر عليه . . ولا يعيب من فعله إذا أحسن المدح أوالذم . . بل ذلك عندى يدل على قوة الشاعر فى صناعته واقتداره عليها .

وربما انصرف هذا الرأى إلى العهود الماضية حيث لم يكن للشاعر مهنة يتكسب منها فيرخص شعره من أجل المال . . ولا يعيبه ذلك . . هذا بالإضافة إلى استقبال الناس للشعر مهما كان غرضه خاصة لو كان من شاعر مشهود له بالجودة . .

لكننا لو قسنا ذلك بمعايير أخرى فندخل فيها الصدق والموقف والموضوعية والنظرة المجردة للأمور . . لاختلف الأمر تماماً . . فأبو قدامة هنا يهمه براعة الشاعر واقتداره على الصياغة والصناعة وهذا لب الاختلاف . .

ولا يمكن أن نكون فى ساحة العصر العباسى دون أ ن نذكر طرفاً من هجائيات **أبى نواس** . . ونلاحظ أنه لم يكن كثير الهجاء إلا من قبيل الفكاهة والسخرية فى الغالب . . ومع ذلك فله هجائيات خالصة قليلة منها ما هجا به البرامكة فى شخص يحيى بن خالد حيث يقول :

قلْ ليحيى بن خالد
يا عدوَّ المساجدِ
يوشك القوم أن تنبّه
من نوم راقدِ
فإذا أنت لا تصو
ل بكف وساعدِ
راكباً جذعَ نخلة
قائماً مثل قاعدِ

والغريب أن أبا نواس نفسه رثى البرامكة فى قوله :

فقل للعطايا بعد فضلٍ تعطّلى

وقل للرزايا بعده أن تَجدّدى

وقل للمنايا قد ظفرتِ بجعفرٍ

فلن تظفرى من بعده بُمسَوَّدِ

فيالك سيفاً برمكياً مهنّداً

أصيبت بسَيف هاشمى مهنَّد

ويروى أن أبا نواس حينما هجا تميم وأسدٍ بلغ خُزيمة أنه قال فى أبياته :

إذا ما تميمىّ أتاك مفاخراً

فقل عدّ عن ذا يا ابن آكلة الضبِّ

فأرسل إليه وأحضره فقال : أصلح الله الأمير لم أقل هكذا وإنما قلت :

خزيمةُ خيرُ بنى خازمٍ

وخازمُ خيرُ بنى دارمِ

ودارمُ خيرُ تميمٍ . . وما

مثال تميم بنو آدمِ

فأمر له بثلاثة آلاف درهم وقال : لا تعد لذكرهم . . ففعل .

ولأبى نواس هجاء قاله فى عمرو الكاتب يقول فيه :

وإنى حين آكل خبز عمرو
لأشجعُ من أبى ليث هِزَبْرِ
أشقّ رغيفَه شقاً عنيفاً
وأعملُ فى ثرائده.. بأمْرِى
فإن يصبْر يذقْ حزناً طويلاً
وإن يجزع ألذّعْه بِشعرى
فتى لرغيفه قرطُ وشنفُ
وواسطتان من در وشذْرِ
ودون رغيفه وردُ المنايا
وحربٌ مثل وقعةِ يوم بدْرِ
وإن فقد الرغيف بكى عليه
بكا الخنساءِ إذ فُجعت بصخرِ

وأحسب أن أبا نواس أيضاً.. لم يخرج من دائرة الحاجة وطلب العطاء.. بل هو يصرح بأن قيمة الإنسان فى عطائه ورغيفه كما رأينا..

وقد مر بنا فى موضع سابق موقف المتنبى من هجاء كافور وكيف فعل هذا...

فإذا ما التفتنا إلى **الفاطميين**. . وجدنا **ابن هانئ** فى رحاب المعز يهجو خصوم الدولة الفاطمية من الأمويين فى الأندلس. . والعباسيين فى المشرق فيقول فى العباسيين:

فكونوا حصيداً خامدين أو ارعوُوا
إلى ملك فى كفّه الموتُ والنشْرُ

أسرْتم قروماً بالعراق أعِزةً
فقد فُكّ من أعناقهم ذلك الأسْرُ

وقد بزّكم أيامكم عصبُ الهُدى
وأنصار دينِ الله والبيضُ والسُّمْرُ

ويذكرنا هذا الأسلوب بالهجاء السياسى فى ساحة أحزاب العصر الأموى. .

على أن ظاهرة السؤال والإلحاح إنما تتصل أيضاً اتصالاً وثيقاً بذلك التنافس بين الشعراء لدى السلطة على الحُظوة والأرزاق والعطايا التى كانوا يطمعون فيها لديها. . ومن ثم وصل الصراع بين الشعراء إلى حد أن حمل بعضهم على أن يحرق شعر غيره. . حتى لا يشتهر بين الناس فينافسه فى رزقه. . فالبحترى قد أحرق خمسمائة ديوان لشعراء عصره حسداً لهم - كما يقول الصبح المنبى - لئلا تشتهر أشعارهم وتنشر محاسنها.

وقد مر بنا كيف كان التنافس فى بلاط سيف الدولة الحمدانى بين الشعراء مما دفع المتنبى إلى الرحيل عن الأمير إلى مصر. .

ولا نود أن ننهى وقفتنا هذه قبل أن نعرض لملمح طريف يمكن أن نعده إرهاصاً لما نجده اليوم من النقد الاجتماعى للساحة العربية فى قصائد الشعراء . . ذلك هو هجاء المدن والكيانات والأحوال الاجتماعية والاقتصادية التى يعانيها الناس فى ظل السلطة الفاسدة . . وانتشار الفقر والتخلف والحاجة .

ولقد تجلى ذلك كله بشكل ملحوظ فى **العصر العباسى** . . وسبب ذلك فى رأينا يعود إلى أن الشعراء الوافدين إلى المجتمع العربى من المدنيات المجاورة . . لم يجدوا ما تركوه فى مجتمعاتهم من ألوان الحضارة . . بل وجدوا شظف العيش والتخلف الشديد والبداوة لدى عامة الناس . . وسبب آخر يتعلق بهذا الأمر وهو فساد الحكام والولاة . . وانعكاس ذلك على انهيار الأخلاق والبؤس . . وتردى الحياة الاجتماعية والاقتصادية .

إن الوضع الذى وصل إليه جشع الشعوبية جعلهم يسخرون من العربى حيث رمزوا له بالشبح والقيصوم وراعى الإبل والضأن . . وإشراك الكلب فى حياة البدوى ومدح أنساب الخيل . . حتى قال قائلهم :

فلستُ بتاركٍ إيوانَ كسرى
لتوضحَ أو لحومْل فالدخُولِ
وضبٌّ فى الفلا ساعٍ وذئب
بها يعوى وليثٍ وسط غيلِ

وبهذا انقسم المجتمع العربى على نفسه . . ووجدنا من الشعراء من رأى فى ذكر الأنساب الهاشمية انحطاطاً وسبة . . أو على حد قول أحد الشعراء :

بنى هاشمٍ عـودُوا إلى نخـلاتكمْ

فقد صار هذا التمرُ صاعاً بدِرهِم

فـــان قلتمُ رهطُ النبى مـــحـــمـــد

فإن النصارى رهطُ عيسى بن مريمِ

كل هذا المناخ القلق . . دعا الشعراء إلى هجاء الحياة فى العراق وغير العراق . . والبكاء على المجد والشرف والكرم والعزة والمساواة والعدالة . .

وهذا شاعر يقول فى بغداد :

لو حلّهـــا قـــارونُ رَبُّ الغِنىَ

أصـــبحَ ذا هـم ووســـــواسِ

هى التى تـوعـــدُ . . لكنـهـــا

عـــاجلـةٌ لـلطاعـمِ الـكاسِى

حـــورٌ وولـدانٌ ومن كل مـــا

تطلبـه فـيــهــا ســوى الناسِ

ويقول آخر :

أذمّ بغـــدادَ والمقـــامَ بهـــا

من بعــد مــا خـــبـرةٍ وتجـريبِ

يحـــتـــاج باغى المقـــام بينهمُ

إلـى ثلاث مـن بعـــــد تـرتيبِ

كـنـوز قـــــــارون أن تـكـون لـه

وعـــمـــر نوحٍ وصـــبـــر أيوبِ

وهذا **أبو العتـاهية** ـ الذى عرف بالزهد فى كل شىء ـ يذم ارتفاع الأسعار الذى ساد العاصمة . . فى قصيدة طريفة يقول فيها :

مـن مـــــبلغٍ عنـى الإمــــا

مَ نصـــائحـــاً مـــتـــواليـــهْ

إنـى أرى الأســـــعـــــارأســ

عـــارَ الرعـــيـــة غـــاليـــهْ

وأرى المـــكـــاســـب نـــزوةً

وأرى الضـــرورةَ فـــاشـــيـــهْ

وأرى غـــــمـــــومَ الدهر را

ئـحـــــةً تمـر وغـــــاديهْ

وأرى اليـــــتـــــامى والأرا

مـل فى البـــيـــوت الخـــاليـــهْ

مـــن بـــيـــن راجٍ لـــم يـــزلْ

يســـمُـــو إليك وراجـــيـــهْ

يشكون مجهدةً بأصـ

وات ضعاف عاليهْ

يرجون رفْدك كي يروْا

مما لقوْه العافيهْ

من يرتجي للناس غيـ

ـرك للعيون الباكيهْ

منْ مُصبيات جُوَّعٍ

تمسي وتصبح طاويهْ

من يرتجي لدفاع كر

بٍ ملمّةٍ هي ماهيهْ

من للبطون الجائعا

ت وللجسومِ العاريهْ

يا ابن الخلائف لا فقد

تَ ولا عدمتَ العافيهْ

إن الأصول الطيبات

لها فروعٌ زاكيهْ

ألقيتُ أخباراً إليـ

ـك من الرعيةِ شافيهْ

ولم يفت الشعراء أيضاً ذم تيارات الزندقة والمجون والشعوبية التى سادت المجتمع وربطوا ذلك بالسلطة . . والصراعات على الحكم . . يؤكد ذلك قول الأصمعى فى البرامكة وهم الأمراء الحكام :

إذا ذكــر الشــركُ فى مــجلسٍ

أضـــاءتْ وجـــوه بنى برمكِ

وإن تُــلــيــت عــنــده آيــةُ

أتوا بالأحـــاديث من مـــزدكِ

وكان الأصمعى قد مدحهم من قبل . . فلما نكبوا . . ذكر الحال التى كانوا عليها وهجاهم أشد الهجاء . .

ولم يسلم الخلفاء أيضاً من الهجاء ووصف حياتهم اللاهية . . فيقول **بشار** :

بنى أمــيــة هبّــوا طال نومكُمُ

إن الخليـفـة(يعـقـوبُ بنُ داودُ)

ضاعت خلافتكم ياقوم فانتظروا

خليــفــة الله بين الزقّ والعــودِ

وقد مر بنا تصوير بعض الشعراء للسلطة الفاسدة حينما دخلها الأتراك وحسبنا هنا أن نقرأ بيت المتنبى الذى يلخص القضية :

وإنما النـاس بـالمـلوك ومـــــا

تفلح عــرْب ملوكــهــا عــجمُ

بل حينما استولى على الحكم بعض النصارى استاء الشعب وتذمر . . وقال شاعرهم يهجو وزيراً نصرانياً فى مصر :

تنصّــــر فــــالتنصّــــر دينُ حق

عليـــــه زمـــــانُنا هذا يدلّ

وقُل بثـــــلاثة عـــــزّوا وجلّوا

وعطِّلْ ما سواهم فهو عُطْلُ

(فيعقوب) الوزير أب وهذا

العزيز ابن وروح القدس(فضلُ)

وهذا منتهى السخرية بالحكم المتقلب والحالة القلقة والانحطاط السائد . .

وحينما لاحظ الشعراء ثراء الحكام وغرقهم فى الترف والفساد . . وغرق الناس فى الفقر والعوز . . وتدهور الأخلاق عند الرجال والنساء . . وانفراط عقد المجتمع عبروا عن ذلك فى قصائدهم . . ومنهم **ابن لنك البصرى** حين يقول :

يازمــــاناً ألْبَسَ الأحْــــرارَ

ذلاً ومَـــــــهـــــــانة

لستَ عندى بزمــــــان

إنما أنت زَمــــــانة[1]

---

(١) الزمانة : العاهة . .

كـيف نرجـو منك خـيـراً

والعـلا فـيك مُـهـانة

أجـنـونٌ مـانـراه

منك يبـدو أم مـجـانة

أو يقول أيضاً:

نحن والله فى زمـان غـشـومٍ

لـو رأينـاه فـى المنـامِ فـزِعْنا

يصبح الناس فيه من سوء حالٍ

حق مـنْ مـات منهـمُ أن يُهَنّا

وكأن الشعب هنا سئم حياته وتمنى الموت أفضل من الحياة فى ظل هذه الحال التى سادت المجتمع . .

ولا يكاد شاعر عربى يفلت من هجاء الأيام والزمان والدنيا . . وكأنه ينفس فى هذا الهجاء عن همومه ويأسه وإحباطه . .

ويصور **المتنبى** الحالة بأصدق صورة فيقول:

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى

عـدواً لـه مـا من صـداقـتـه بدُّ

أو يقول:

ودهرُ نـاسـه ناسٌ صـغـارٌ

وإن كـانت لهم جـثثٌ ضـخـامُ

وما أنا منهمُ بالعين فيهم

ولكنْ معدنُ الذهب الرَّغامُ

أرانب غير أنهمُ ملوكٌ

مفتّحةُ عيونهم . . نيامُ

وديوان المتنبى حافل بهجاء الزمان والدنيا لما لاقاه من معاناة وإحباط .

وهذا **أبوفراس** يبكى ضياع الأخلاق الفاضلة فيقول :

بمن يثق الانسانُ فيما ينوبُه

ومن أين للحرّ الكريم صحابُ

وقد صار هذا الناسُ إلا أقلّهم

ذئاباً على أجسادهن ثيابُ

ولا نود أن نسترسل فى ذلك فالنماذج كثيرة تشهد بإيجابية الشعراء ودورهم فى تشخيص أدواء المجتمع . . مؤكدين أن السلطة هى السبب فى الانهيار الذى يحدث وفى كل المشاكل التى تسود فى أى مجال من مجالات الحياة . .

ولا نريد أن نتعجب لموقف الشاعر الذى يتكسب تارة بشعره . . وتارة أخرى نجده هاجياً ناقداً لاذعاً . . فقد كان العصر يسمح بذلك . . ولا نظنه يسمح فى عصرنا بهذا . . فيكون للشاعر وجهان : وجه يمالئ السلطة ووجه آخر يهجوها وينقدها . . لأن الظروف التى

يعيشها شاعر اليوم تتيح له الاستقلال والحرية بشكل أفضل من شاعر الأمس . .

وربما نتساءل هنا عن مصير الشعراء الذين ينتقدون السلطة . . وهل ينالون منها عقاباً أو اضطهاداً على مواقفهم تلك . .

إن شاعراً مثل **أبى العلاء المعرى** كان أهجى الشعراء للدول والإمارات والحكام . .

فهو يقول مثلاً عن الشام :

ألفْنا بلاد الشـــام ألف ولادة

نلاقى بها سودَ الخطوبِ وحمْرَها

فـإنى أرى الآفـاق دانت لظالمٍ

يغـرّ بغـاياها ويشـربُ خـمـرَها

ولو كانت الدنيا من الأنس لم يكن

سوى مومسٍ أفنت بما ساء عمرَها

أو يقول فى صراحة أكثر :

لقد ساس أهلَ الأرض قومٌ تفتّقتْ

أمـورُ فـمـا ألفت لهم يدُ راتقِ

أو يقول :

كلُ الديار ذمـيـمُ لا مـقـامَ به

وإن حللتَ ديار الوبل والرهَمِ

إن الحجاز عن الخيرات محتجزُ
وما تهامةُ إلا معدن التّهمِ

والشام شؤم وليس اليمن فى يمنٍ
ويثربُ الآن تثريبُ على الفَهمِ

أو يقول:

يقولون: فى المصر العدولُ وإنما
حقيقة مما قالوا العدولُ عن الحقِ

إلى آخر هذا الطوفان من النقد اللاذع للسلطة والأحوال الاجتماعية..

وهو يصدر عن فهم وفلسفة ورؤية خاصة لدى أبى العلاء..

نقول ما الذى كان يلقاه الشاعر من جراء هذه الانتقادات اللاذعة..

إن النظرة المتأنية للأحوال الاجتماعية والسياسية تجيب عن هذا التساؤل..

فالخلفاء والأمراء والكبراء.. كانوا مشغولين بتأكيد بقائهم على مقاعدهم وعروشهم بأى ثمن.. ولأنهم يدركون تأثير الشعراء على الواقع الاجتماعى سواء أكانوا موالين أم غير موالين.. فإنهم يفتحون أبوابهم على مصاريعها لهم.. والهدف واضح هنا.. هو منح الشاعر عطاء يلجمه أو يخفف من ثورته أو يغير موقعه من المواجهة إلى الموالاة..

أما الشاعر الذى لا يهمه العطاء . . فيمكن أن يسلط عليه شاعر آخر يهجوه ويحط من قدره . . وتصبح الحرب هنا حرب شعر وتعبير . . كما حدث فى المعترك السياسى فى العصر الأموى . . والتبشير بالبيت العباسى فى أول حكم العباسيين حيث تنافس وتصارع الشعراء . . والخلفاء سعداء بهذه الحرب . .

ولقد أدرك ذلك الخلفاء بما عرفوا عن أمزجة الشعراء الكثير . . ويكفى أن نسوق هنا عهد الخليفة المتوكل مثلاً على ذلك . . وكأنه يدرك تماماً اللعبة الإعلامية بكل ألوانها . .

ولقد ولى المتوكل والساحة الاجتماعية والسياسية تموج بالصراعات المذهبية والتناقضات العميقة . . فبقايا الأحزاب الأموية مازال لها وجود قوى وضعيف . . وصراعات البيت العباسى على أشدها . . بحيث ينتظر كل خليفة أو وال الفرصة للانقضاض على الحكم . . وعلى أطراف الدولة ثورات أخّرى مثل ثورة الزنج وثورة عبد القادر . . وفى قلب الساحة هناك تياران متضادان : الزهد والمجون . .

ماذا يفعل الخليفة إزاء هذا المعترك؟

إنه يريد أن يؤمّن حكمة بالدرجة الأولى . . وليكن بعد ذلك ما يكون . .

إن تاريخ هذه الفترة يشهد بقدرة المتوكل على التفكير والحيلة . . فقد فتح قصره لجميع الشعراء من التيارات كافة . . لاشىء إلا ليؤمن نفسه ضد أية مؤامرة ضده يقودها الرأى العام بلسان الشعراء . .

وكان المتوكل يجزل العطاء للشعراء . . ويكمم الأفواه بالجوائز والمسامرة . . فأقبل الشعراء وتزاحموا على بابه يمدحونه ويبرهنون على أنه الخليفة الحقيقى وغيره محكوم عليه بالإخفاق . .

ويبدو أن هذه اللعبة الإعلامية قد أدركها ووعيها الحكام على طول الأيام!

هذا بالإضافة إلى أن الخلفاء والحكام كانوا لا يعيرون اهتماماً كبيراً لما يقال فالشعراء الآخرون يدافعون عنهم ويتلقون المكاسب . . وتجلس السلطة فوق عرشها فى مقعد المتفرج دون أن يمسها سوء .

ولا نريد أن نطلق الحكم هكذا بلا ضوابط . . فهناك حوادث متفرقة عن اضطهاد السلطة للشعراء . . أو معاقبتها لشاعر هجاها . . كما حدث مع بشار أو كما حدث مع ابن المقفع ـ ولم يكن شاعراً ـ لكن التاريخ كثيراً ما يتغاضى عن مثل هذه الحوادث التى تناثرت على ساحة المجتمع العربى شرقاً وغرباً تدين الرأى والموقف والكلمة . . نظراً لقوة قبضة السلطة على الرقاب والألسن . .

وصفوة القول هنا تقرر أن الدافع لترك الشعراء يقولون ما يريدون من الهجاء والانتقاد لم يكن من باب (حرية التعبير) وإنما كان بهدف تأمين السلطة نفسها . . والاطمئنان إلى سلامتها . . فالكلاب تعوى والقافلة الفاسدة تسير . . والشعراء يتناطحون ويتصارعون ويتهاجون . . والسلطة مستمرة فى أسلوب حكمها بلاضمير . . . .

هكذا كانت الصورة السياسية والاجتماعية وموقف الشعراء منها فى العصور المزدهرة . كما يطلقون عليها .

فإذا انتقلنا إلى عصور التخلف والانحطاط الأدبى . . نتيجة الانحطاط السياسى والاجتماعى . . نجد الشعر قد فقد مصداقيته . . وفقد قوة تأثيره وزاحمه كثير من الوسائل الأخرى التى تستخدمها السلطة لكسب الرأى العام وإلهائه . . وتعميته عن فساد السلطة . .

وقد استخدمت السلطة فى ذلك الكتاب والخطباء فى المساجد والعلماء والحكّائين وغيرهم من فئات الإعلام المستحدثة آنذاك .

ونذكر فى هذا الصدد ماحدث فى زمن العزيز بالله الفاطمى . . حينما أكثر فى منح اليهود والأجانب مناصب فى قصره وفى الدولة . . فبدأ الناس يثورون . . والشعراء يحرضون خاصة وقد دب الفساد فى المجتمع وانحطت الأخلاق . .

وينطلق شاعر مثل **الشريف العقيلى** . . يهجو وينتقد صور المجتمع الفاسدة برغم أنه اشتهر عنه اللهو ومقارعة الخمر ومبادرة اللذات . . فهو لاه شريب من ناحية . . وراصد عميق للمجتمع من ناحية أخرى ومن ثم فقد جمع بين الضدين فى شعره . .

وقد عاش الشاعر حياته مترفعاً عن السؤال والتزلف إلى السلطة فى عصر كثر فيه الملق والتقرب لها . . وإنما اكتفى بما يقدم له كل شهر باعتباره واحداً من الأشراف . . إغناء له عن الحاجة والسؤال . . ويبدو أن هذا الرسم الذى يقدم له كل شهر كان ينقطع أحياناً فكان يضطر إلى مدح الذى قطعه وكأنه يذكره بالأمر فى مثل قوله :

يا غـــرةً فى جـــبـــهـــة الدهرِ

إلى مـــــتى تنظرُ فى أمـــــرى

أطلقْ ليَ الرسمَ الذى كنت قـــد

علـقـــتـــــه فى ثبت البـــــر

ووصّ حـــدواك بتـــعـــجـــيله

لناصح فى خــــدمـــــة الشكر

فـــمـــا تقـــاضـــيـــتك إلا وقـــد

لازمنى خـــــصم من الـضـــــر

أما هجائياته وانتقاداته فنذكر منها ما قاله فى الكاتب ابن جارود المسمى غياثاً حيث يقول:

يـاصـــــــاح لا تصغ إلى لـفظة

يفـتح عنهـا شـفـتـيـه غـيـاثْ

ذو خـاطر رخـو ضـعـيف القـوى

يأتـيك منـهـــــا بمعــــان إناث

لم يكس مـذ كـان مـقـاطيـعـه

غــيــر مــعـــان دنســات رثاث

ولم يسلم عمال الأقاليم من لسان الشريف العقيلى حيث قال فى أحدهم:

عــامل دمـــيـــاط فــتىً قلمـــاً

يحــصلُ من وفــد على شــاكــرِ

فعاله تسخط بعد الرضا

ويفسد الأول بالآخرِ

وإن وفى عاد إلى غدره

لضعف رأى . . وعمى خاطرِ

لا خير فى المرء إذا لم يكن

باطنه خيراً من الظاهرِ

وله هجاء فى ابن جريح وكان مسيحياً ثم أسلم فهجاه بقوله :

كان مسيحياً فلما غدا

محمدياً نسى الذلا

وصار لا يرعى شريفاً ولا

يرى له حقاً ولا فضلا

ولما فاحت رائحة الفساد فى العصر والحكم ولهج بذلك ألسنة الناس فى الأسواق والشوارع ؛ استدعى العزيز بالله شيخ الحكائين وقتئذ ـ الشيخ يوسف بن إسماعيل ـ وأمره أن يلهى الناس عن الخوض فى الحديث والثرثرة حول الحكم والفساد . .

فانطلق الشيخ يحكى للناس سيرة عنترة يكتبها ويوزعها عليهم كل ليلة وقسمها إلى اثنين وسبعين كتاباً ـ كما جاء فى شعراء النصرانية للأب لويس شيخو ـ والتزم فى آخر كل كتاب أن يقطع الكلام عند أمر يشتاق القارئ إلى الوقوف على تمامه . . وهكذا إلى نهاية

القصة . . وقد أفلح الشيخ يوسف فى إلهاء الناس وإشغالهم عن الحديث فى فساد السلطة . .

ونفهم من هذا أن السلطة تمتلك أساليب الإلهاء الإعلامى بقدرة خارقة فى أى زمان وأى مكان . .

ونلاحظ أن أصحاب الأقلام فى أى زمان قد وطنوا أنفسهم على التحزب والانقسام إلى أكثر من فريق . . فمثلاً نجد فريقاً يوالى ويمالئ السلطة ويزين أعمالها ويجسم ويبالغ فى إنجازاتها . . وفريقاً ينتقدها وينبش عن مثالبها . . وفريق ثالث بين هذا أو ذاك بالقدر المسموح له!

أما الفريق الأول فالساحة متسعة له دائماً . . والوظائف القيادية . . والمناصب . . والعطايا . . بين يديه . . بعكس الفريق الثانى الذى سرعان ما يخفت صوته ويكمم فمه من وطأة الحاجة أو السجن أو العسف . . وأما الفريق الرمادى الثالث فهو يوازن بين أطماعه وأطماع السلطة . . ولا يجد غضاضة فى التلون والتشكل حسب ما يقتضيه الموقف . .

وحسبنا أن نتوقف هنا لنبدأ مع ملامح العصر الحديث فى الهجاء السياسى والاجتماعى . . وهى وقفة شائكة . . لكن لا بد منها حتى تكتمل الصورة . .

الهجاء السياسى والاجتماعى

٢ ـ العصور الحديثة

يحار الدارس أو المحلل المعاصر فى فهم مضمون الشعر السياسى والاجتماعى . . وبالتالى تصنيف الشعراء إلى شعراء مواقف وشعراء بعيدين عن اتخاذ أى موقف . . وأيضاً يصعب علينا أن ننظر نظرة شمولية متفحصة ونستخرج من أعمال الشعراء ما يوضح موقفهم فى مواجهة السلطة . . فالسلطة المعاصرة ليست هى سلطة الحاكم فحسب كما كانت فى العصور القديمة . .

إن المنطقة العربية بعد العصر العباسى الثانى . . قد تقسمت إلى دول وإمارات . . وكان ذلك بإرادة العرب أنفسهم . . أما المنطقة العربية اليوم . . فقد تقسمت إلى دول وإمارات بإرادة خارجية تمثلت فى خطط الاستعمار وأطماعه . . التى صار من صالحه هذا التفرق العربى الواضح . . والخطوط الحمراء بين الأشقاء وإثارة الضغائن والإحن بينهم . . ومن جراء ذلك صارت المنطقة فوق بركان ثائر تشتعل دائماً بالصراعات التى لا تفيق منها . . وتعبث بها القوى الخارجية من أجل الاستيلاء على خيراتها ببساطة .

فما هى إذن تلك السلطة التى يمكن للشاعر أن يواجهها؟

هل هى سلطة الحكومات العربية التى هى فى معظمها أدوات فى رقعة الشطرنج بيد القوى الأجنبية الخارجية . . وهى سلطة عربية . . لكنها لا تُمنح الفرصة للتفكير فى أقدارها ومصائرها أى أنها مسلوبة الإرادة تماماً . . لأن سلطة غيرها هى التى تقوم بالتخطيط لها . . وإعطاء المشورة التى لا تجد فيها صالحها الأول . .

يحدث ذلك على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإعلامية . . وها نحن نعايش هذه المشاهد . . فنغرق فيها حتى اللهاة . . ثم نفيق على واقع مر نحاول تغييره بلا جدوى لأنه استقر بلارجعة .

ولا أظننا فى حاجة إلى اجترار تلك الأحداث التى توالت عبر أكثر من قرنين من الزمان والتى كان من نتائجها هذه الصورة الكريهة التى نحن فيها اليوم .

ـ دول وإمارات صغيرة وكبيرة تتقاسمها أطماع الغرب من أجل ثرواتها الطبيعية .

ـ شقاق دائم وفرقة بين هذه الكيانات على أسباب تافهة يثيرها الاستعمار مستغلاً ذلك التخلف الحضارى الذى يرين على المنطقة . . والذى ورث العصر الجاهلى فى أسلوب إثارة الأحقاد والكراهية والعداوة لأتفه الأسباب .

ـ إرادة عربية مسلوبة تماماً حتى فى قضايانا المصيرية . . كما يحدث على أرض فلسطين . . وما يحدث على أرض الرافدين . .

ـ سياسات خارجية تفرض علينا بأساليب التسلل والجاسوسية والوعود والإعانات . . من خلال مفهوم التغريب الحضارى . . فنكتشف أننا نلقى بأنفسنا فى أحضان الغرب . . ونأخذ بالقشور ونتشبه به دون أن نفكر أن نعى تلك المؤامرة المتمثلة فى الغزو الحضارى والثقافى والإعلامى(العولمة) . .

ـ عجز كامل عن رسم سياسة مستقبلية عربية موحدة . . بغير أن تكون فى إطار امتصاص غربى لكل طموح . . حتى تبقى المنطقة أسيرة للقيود الغربية . . لا ترفع رأسها احتجاجاً أو تمرداً إلا فى الإطار المسموح به . .

ـ ارتباط وثيق بحبال الاقتصاد الغربى وعملاته . . وإلا سقط العرب فى بئر الفقر والحاجة والعوز والبطالة . .

ونستطيع أن نسوق صوراً إضافية كثيرة لما وصلت إليه الحال العربية المزرية . . والإحباط النفسى الذى يسرى فى وجدان كل عربى من المحيط إلى الخليج . .

وعبرهذه المرحلة الطويلة عبر أكثر من قرنين من الزمان . . علت أصوات ترفض وتشجب وتتمرد وتتبرم وتهجو وتكشف وتثور . . وكان جزاؤها النفى أو السجن أو القتل أو تكميم الأفواه أو التهديد . . أو على أقل تقدير العواء فى الهواء بلا طائل !

ولسنا هنا فى مجال يجعلنا نتباكى على مصيرنا . . فلن يجدى البكاء . . لكننا سوف نحاول أيضاً أن نرصد بعض المواقف والعلامات التى تجعلنا نبتعد قليلاً عن جلد أنفسنا . . من خلال ما

أبدعه الشعراء فى هذا التحول الذى أصاب عروبتنا فى مقتل لا تنهض منه . .

ونؤكد هنا أن الشعراء المعاصرين قد انقسموا على أنفسهم - كالعادة - برغم عدم الشك فى وطنيتهم . . فبعضهم رأى فى الاستعمار فائدة وريادة ومثلاً وإضافة حضارية لم تكن تحدث لولا وجوده . . وبعضهم دحض هذا التصور وناضل وتمرد على هذا الوجود بحسّ عربى صادق . .

ويبدو أن مفهوم الهجاء السياسى والاجتماعى قد صار يدل على الحماسة والفخر بالأمجاد والتذكير بها . . ومقارنة ذلك بالواقع المتردى . . أكثر مما يدل على الهجوم على السلطة الدخيلة أو السلطة القومية الخائنة . . ولم يقذعوا فى ذلك كما فعل القدماء .

فحينما هجم المغول والصليبيون فى العصور الوسطى على الأرض العربية تسابق الشعراء فى حماسة بالغة يتذكرون الأمجاد العربية ويندبونها ويبكون عليها . . وفعل ذلك الشعراء أيضاً بعد سقوط الأندلس . . وضياع أرضهم . .

وحينما نقلب دواوين الشعراء المعاصرين . . نجدهم يرسمون للغرب صورة قاتمة متوحشة . . لكنهم لم يتعرضوا مثلاً لتاريخهم وأنسابهم وحضارتهم وتقاليدهم كما كانت حال الهجاء السياسى قديماً . . لكن جل ما فعل الشعراء أنهم طالبوا بالمبادئ الإنسانية والمثل العليا والكف عن الظلم والعدوان . .

لقد اشترك **محمود سامى البارودى** فى الثورة العرابية وكان من

قوادها . . وحاول حين تعقدت الأمور اعتزال المعركة . . لكنه لم يستطع . . وقد شغل مناصب عدة فى الدولة حتى ولى الوزارة ورأسها . . وكانت نزعاته تميل إلى الإصلاح فى مجالات الحياة المختلفة . . وحاول أن يوفق بين ولائه للخديو وبين هذه النزعات التى غرسها بداخله جمال الدين الأفغانى . . لكن الأمور سارت على غير ما أراد . . وقامت الثورة العرابية ضد الاحتلال البريطانى والخديو معاً . . فأحس البارودى بالخطر ونصح عرابى ورفاقه . . وفى هذا يقول :

نصحتُ قومى وقلتُ الحرب مفجعةٌ

وربما تاحَ أمــرٌ غــيــر مظنونِ

فخالفونى وشبّوها مكابرةً

وكان أولى بقومى لو أطاعونى

ولم يجد بداً من المشاركة الوطنية . .

وللبارودى قصائد سياسية تعبر عن موقفه الوطنى فى مواجهة السلطة والفساد والخيانة . . ومن ذلك ما قاله يعرض برياض باشا ويذم الدس والمكايد السياسية ومحترفيها . . وماجنته على البلاد . . ويحرض على الثورة . . فيقول :

حلبتُ أشطرَ هذا الدهر تجــربةً

وذقتُ ما فيه من صابٍ ومن عسَلِ [1]

---

(١) الصاب : المر .

فـمـا وجـدتُ على الأيام باقـيـةً

أشهى إلى النفس من حرية العملِ

لكننا غـــرضٌ للـشـــر فى زمنٍ

أهل العـقـول به فى طاعـةِ الخَـملِ

قـامت بـه من رجـال السـوء طائفـةٌ

أدهى على النفس من بؤسٍ على ثكلِ

من كل وغـدٍ يكاد الـدستُ يدفـعُـه

بغـضـاً . . ويلفظُه الديوان من ملَلِ

وهو يقـصـد هنا رياض باشـا وكـان رئيسـاً للوزارة التى خرج منهـا البارودى . .

ثم يقول :

بئس العشيرُ وبئْست مصر من بلدٍ

أضحتْ مُناخاً لأهلِ الزورِ والخطَلِ

أرض تأثّل فيـهـا الظلمُ وانقـذفتْ

صـواعقُ الغدْر بين السهل والجبلِ

وأصبح الناسُ فى عـمـيـاءَ مُظلمـةٍ

لم يخْطُ فيـهـا امـرؤ إلا على زلَلِ

فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا

شكالةَ الريث فالدنيا على عجَل [١]

وقلدوا أمركم شهماً أخا ثقة

يكون ردءاً لكم فى الحادث الجلَلِ

وطالبوا بحقوق أصبحت غرضاً

لكل منتزِع سهماً ومُختتِلِ

ولا تخافوا نكالاً فيه منشؤكُم

فالحوتُ فى اليم لا يخشى من البلَلِ

وكما نرى يواجه البارودى رئيس الوزراء - السلطة - بشجاعة وقوة ويحرض الناس على الثورة وعدم الخوف . .

وحينما نفى البارودى فى جزيرة سرنديب حمل على الأدنياء الذين رضوا بالذل ونفاق السلطة . . وباعوا وطنهم رخيصاً . . فقال فيهم :

ألا أيها الزارى علىّ بجهله

ولم يدر أنى درةٌ فى المفارقِ

تعزَّ عن العلياء باللومِ واعتزلْ

فإن العلا ليست بلغو المناطقِ

---

(١) شكالة : العقال الذى تقيد به الدابة - الريث : الإبطاء

وأىُ حـيــاة لامــرئ إن تنكّرتْ

له الحـالُ لم يعـقـد سـيورَ المناطقِ

أمــرتُ بمعــروف وأنكرتُ منكراً

وذلك حكـم فى رقــابِ الخــلائقِ

فـإن كـان عـصيـانـاً قـيـامى فـإننى

أردت بعـصـيـانى إطاعـةَ خـالقى

وكـيـف يكون المرءُ حـراً مـهـذباً

ويرضى بمـا يأتى به كل فـــاسقِ

فـإن نافق الأقـوامُ فى الدين غـدرةً

فــإنى بحــمــد الله غـيــر منافقِ

وتتـصاعـد الأمـور . . وتتـوالى الأحداث ـ ويتمكن الإنجليـز من الحكـم ـ لنجـد **حـافظ إبراهيم** يعـجب بالإنجليـز . . ولكنه يرثى فى الوقت نفسه لحال المصريين .

وحينما عرض لمأساة دنشواى طلب من الغاصبين أن يترفقوا فهم من شعب كبير يحكم الأرض . . فقال :

أيهــا القــائمــونَ بالأمــرِ فــينا

هل نســـيـــتم ولاءنَا والودادا

خفضوا جيشكم وناموا هنيئاً

وابتغوا صيدكم وجُوبوا البلاداً

وإذا أعوزتكمُ ذاتُ طوقٍ

بين تلك الربا فصيدوا العبادا

ثم يقول:

أحسنوا القتلَ إن ضننتُم بعفوٍ

أقصاصاً أردتمُ أو كيَادا

أحسنوا القتَل إن ضننتمُ بعفو

أنفوساً أصبتمُ أم جمادا

ثم يبكى فى هزيمة منكرة:

أنت جلادنا فلا تنس أنا

قد لبسْنا على يديك الحدادا

أما **أحمد شوقى** فيتناول نفس الحدث فى نواح فيقول:

نوحى حمائم دنشوايَ وروِّعى

شعباً بوادى النيل ليس ينامُ

متوجع يتمثل اليوم الذى

ضجّت لشدة هوله الأقدام

في كل ناحـــيــــة وكل مــــحلة

جـزعــاً من الملأ الأسـيف زحــامُ

وعلى وجـــوه الشــاكلين كــآبةُ

وعلى وجـوه الشـاكـلات رغــامُ

وفى الوقت نفسه كان يذم الفرنسيين فى الشام. . والإيطاليين فى طرابلس الغـرب. . ولكنه كـمـا نرى يرثى ويتـوجع. . وربما هو من طرف خفى يستثير الشعور القومى ويدعو إلى المواجهة لكن على استحياء. .

ولنسمح لأنفسنا أن نقفز قفزة واسعة إلى ما بعد منتصف القرن العشرين لنقرأ معاً قصيدة (شنق زهران) للشاعر **صلاح عبد الصبور**. . فهو هنا قد التقط فكرة القصيدة من أحد الضحايا الذين شنقوا فى دنشواى وأخذ يسوق أحلامه فى مستقبل كريم. . لكن ما حدث أجهض هذه الأحلام:

مر زهران بظهر السّوق يوماً

ورأى النارَ التى تُحرق حقلاً

ورأى النار التى تصرع طفلاً

كان زهران صديقاً للحياة

ورأى النيران تجتاح الحياة

مد زهران إلى الأنجم كفا

ودعا يسأل لطفا

ربما سورة حقد فى الدماء

ربما استعدى على النار السماء

ـ ثم يقول بعد أن قتلوا زهران :

قريتى من يومها لم تأتدم إلا الدموع

قريتى من يومها تأوى إلى الركن الصديع

قريتى من يومها تخشى الحياة

كان زهران صديقاً للحياة

مات زهران وعيناه حياة

فلماذا قريتى تخشى الحياة

هكذا يصور الشاعر الفجيعة وكيف ترك الاستعمار الخوف فى النفوس لكنه فى النهاية لا يفقد الحلم . . فلماذا يخشى الحياة . .

ولست أسوق هنا قصيدة صلاح عبد الصبور إلا لنتذكر أن الشعراء المحدثين قد أخلصوا لوطنهم إخلاصاً عميقاً . . ورفضوا كل أقنعة الزيف . . وسوف نعرض لذلك بالتفصيل بعد قليل

ولشوقى قصيدة يذم فيها الزمان ويذكر مصائبه ـ وقد وردت فى الشوقيات المجهولة ـ يقول فيها :

قلْ للزمـــانِ يصبّ من أحـــداثه

أو لا يصبّ فـــمـــا بنا إشـــفـــاقُ

غمرت مصائبُه . . فأغرقَنا بها

والغمر فيه تستوى الأعماقُ

لابد من يوم تميد لهوله

شمّ الجبالِ وتظلم الآفاقُ

فهناك إما طالت الأعناق ما

طالت وإما زالت الأعناقُ

ويعد بعض النقاد قصائد شوقى على لسان الحيوان ـ والتى نشرت فى الجزء الرابع من ديوانه ـ رموزاً يختفى وراءها الشاعر لنقد السياسة والفساد وسلوك رجال السلطة . . ويستندون فى رأيهم هذا إلى أن كليلة ودمنة . . وخرافات إيسوب . . ولافونتين . . كتبت فى ظروف سياسية مشابهة . .

ولو كان شوقى يقصد هذا حقاً . . لأرخ لهذه الحكايات تاريخاً دقيقاً صريحاً يجعلنا نحيل رمز الحكاية مباشرة إلى الحادثة المقصودة . .

ويذكر أن شوقياً نفسه صرح بأنه كان يجرب حاسته الفنية وهو فى الخارج فى نقل خرافات لافونتين شعراً ثم يجمع أطفال المصريين ليقرأها عليهم . . ولم يقل يجمع المصريين أو الكبار ليقرأها عليهم . . !

ومع ذلك فإن الحسّ السياسى خلال هذه القصائد قد يتخفى وراء الرمز إلى حد ما . . وأحسب أن الشاعر لو كان يعنى هذا لما أجهدنا

أنفسنا وراءه هكذا لاستخلاص الرمز . . ولشممنا رائحة قصده مثلما ندرك ذلك فى القصائد الرمزية السياسية المعاصرة التى تستخدم التراث والأحداث والأساطير . .

وقد حاول د. سعد ظلام فى كتابه(الحكاية على لسان الحيوان فى شعر شوقى) أن يناصر هذا التحليل ويؤكد الحس السياسى خلال ستة وعشرين قصيدة من هذه القصائد . . ومنها :

قصائد السفينة : القرد ـ نوح والنملة ـ الدب ـ الثعلب ـ الليث والذئب ـ الثعلب والأرنب ـ الأرنب وبنت عرس ـ الحمار ـ حيث يرى أنها تدل على عهد عباس حلمى الثانى ـ قائد السفينة ـ وما كان يؤمله الشاعر من الخديو الشاب . . ومدى حاجته إلى إحداث تغيير جوهرى فى أساليب الحكم والحكومة . .

ثم قصائد : فأر الغيط وفأر البيت ـ الديك الهندى والدجاج البلدى ـ تتصل بالوعى القومى فى مصر . .

وقصيدة : النعجة وأولادها : تعايش فكرة المناداة بالخلافة العباسية . .

وقصيدة : الأسد والضفدع . . تتصل ببدايات عباس حلمى وصلته بالعرابيين . .

وقصيدة : أمة الأرانب والفيل : تتصل بالسودان والثورة المهدية . .

وقصيدة : الثعلب الذى انخدع . . تتصل بالاحتلال الإنجليزى . . . . وهكذا . !

ولا نستطيع أن نجزم بصحة هذا التفسير . . خاصة أن أحمد شوقى كان فى وضع سياسى دقيق . . يجعله حائراً بين حسّه الفنى وموالاة السلطة التى يدين لها بالمولد والمحبة . .

كما لا يمكننا أن نرفض هذا التحليل على الإطلاق . . بل علينا أن نسعد به أحياناً حينما نبحث عن أمجادنا . . فنعده إرهاصاً لحركة الرمز السياسى فيما بعد . .

لكننا نتساءل مع تقديرنا لشوقى . . لماذا لم يجمع ويلتفت نقادنا على ريادته لهذا الفن فى العصر الحديث . . فنكف نحن عن النبش فى ثنايا الظلمات دون جدوى؟!

وعلى كل فالقضية مهمة وتستحق النظر . . وتتطلب من النقاد إمعان الفكر والتقدير لما أنجزه شوقى فى هذا المجال . . وما أنجزه من قبله الشاعر محمد عثمان جلال فى كتابه(العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ) والذى يتصمن مائتى قصة شعرية على لسان الحيوان . . وقد صدرت الطبعة الأولى منه فى نحو عام(١٨٤٧) أى قبل مولد شوقى نفسه بنحو خمسة عشر عاماً .

# # #

ونفتح صفحة أخرى مع الشاعر **إسماعيل صبرى** لنجده بأسلوب مختلف قليلاً يتناول مصر باللوم والعتاب حيث يقول :

إننى اســـتـــغـــفـــرُ الله لكم

آل مــصــرِ ليس فـيكم من رجــالْ

فلَّ غــرْبى مـا أرى من نومكم

ورضاكم بوجود الاحتلال[1]

بح صوتى داعيا مستنهضا

صارخا حتى تولانى الكلالْ

لم أجد فيكم فتى ذا همة

إن عدا الدهرُ عدا أوصال صالْ

وعلى النحو نفسه نجد **حافظ إبراهيم** يندد بأخلاق قومه ويهجوهم لما وصلوا إليه من حال مزرية فيقول :

حطَمت اليراع فلا تعجبى

وعفتُ البيان فلا تعتِبى

فما أنت يا مصر دار الأديب

ولا أنت بالبلدِ الطيبِ

وكم غضب الناسُ من قبلنا

لسلْب الحقوق ولم نغضِب

(وكم ذا بمصر من المضحكات)

كما قال فيها أبو الطيب

---

(١) الغرب : حد السيف .

أمـــور تمرّ وعـــيش يمـــرّ

ونحن من اللـهـــو في ملعبِ

وشـعبٌ يفـرّ من الصـالحـاتِ

فـــرار السليم من الأجـــربِ

وصـــحْف تطنّ طنينَ الذباب

وأخـــرى تُشُن على الأقـــربِ

وهذا يلوذ بقـــصـــر الأمـــيـــر

ويـدعـــو إلى ظلّه الأرحبِ

وهذا يلوذ بقـــصـــر السّـفـيـــر

ويُطنبُ في ورده الأعـــــذبِ

وقـالوا: دخـيلٌ عليـه العـفـاءُ

ونعم الدخـــيلُ على مـــذهبي

رآنا نيـــــامـــــاً ولما نُفقْ

فـشـمَّـر للسّـعْي والمكسَب

ألفنا الخـــمـــولَ ويا ليـــتنا

ألفنا الخـــمـــولَ ولم نكذبِ

هكذا جسد حافظ إبراهيم حال المجتمع المصري في ظل الاحتلال . .

وكما فعل حافظ مع مصر . . هجا سوريا فى ظل الانتداب . . فقال :

باع الأديبُ كتاب الصرف من طفرٍ

وعضّه الظالمان البردُ والسّغَبُ

ولا ترى شارياً فى السوق قاطبةً

إلا المآميرَ بالمالِ الذى نهبُوا

قالوا : حكومتنا شورى فقلتُ لهم

أنعم وأكرم فهذا القصدُ والأربُ

فى البرلمان رجالٌ ليس ينقُصهم

عن البهائم إلا السّرجُ والذنبُ

وكأنه ينبه إلى حيل وخداع الاستعمار والديمقراطية الزائفة . .

ثورات منتصف القرن العشرين:

ويفيق العالم العربى فى منتصف القرن العشرين على ثورات مناهضة تشتعل هنا وهناك هدفها الأول التحرر من الاستعمار والتخلف ومحاولة العودة إلى العروبة والهوية الخاصة .

ولسنا فى مجال مناقشة نجاح أو إخفاق هذه الحركات التحررية . . لكننا نستطيع أن نؤكد أن الشعراء كانوا أول من وقفوا إلى جانب هذه الثورات وناصروها . . وأيدوا قوادها . . وما أكثر القصائد التى كتبت فى زعامة عبد الناصر . .

وبدأ الشعب العربى يتخذ لنفسه مساراً إعلامياً خاصاً . . ويفجر طاقات الشعراء فى دعوة الناس إلى تأييد الحرية والمساواة والعدالة والمبادئ العظيمة للثورات . .

ثم يحدث هذا الزلزال المفاجئ الذى انكسر معه الحلم العربى فى عام ١٩٦٧ . . ليصاب الإنسان العربى بخيبة أمل شديدة انعكست على الشعر والشعراء . . باعتبار الشعر صوت الجماهير الذى يحسّ ويوجّه ويجمّع ويتنبأ . .

وكان الوطن العربى قد أصيب من قبل بكارثة لا يزال يعانيها حتى اليوم وهو وجود إسرائيل فى الأرض العربية وضياع الحق الفلسطينى . . وقد صاحب ذلك مواقف متهاونة من الجانب العربى . . ومواقف ضاغطة من الجانب اليهودى . . ومازالت معاناة الشعب الفلسطينى اليومية شاهدة على هذا الضياع . .

هى إذن قضايا تتعلق من قريب ومن بعيد بضعف السلطة فى المنطقة العربية . . إلى جانب سيادة سلطة الأقوى فى العالم الغربى وفى إسرائيل معاً . .

ويقف الشعراء أمام هذه القضايا والإحباطات يصرخون ويهجون ويندّدون .

ويكاد ديوان الشعر المعاصر عبر نصف قرن مضى يضيق بهذه الصرخات حتى ليصعب على أى باحث أن يرصد رصداً جامعاً تلك القصائد التى تواجه الداخل والخارج فى شجاعة وجرأة . .

ولكننا هنا سوف نكتفى بأبرز العلامات الشعرية فى هذه القضايا

تحقيقاً لفكرة هذه الدراسة : وهى موقف الشعراء من السلطة . . وأيضاً موقف السلطة من الشعراء . .

ولنبدأ بهذا الشاعر الفلسطينى الذى يجىء فى طليعة هؤلاء الشعراء الذين انطلقوا واحترقوا فى أتون القضية الفلسطينية . . هو الشاعر **إبراهيم طوقان** الذى ولد فى نابلس عام ١٩٠٥ وعاش نحو ستة وثلاثين عاماً مخلصاً لقضيته .

لقد عمل طوقان بالتدريس بعد تخرجه . . لكنه كان يراها مهنة ضيقة لها أسوار تسجن الفكر والإبداع . . ومن ثم أخذ يسخر ويهجو هذه المهنة لما فيها من خمول واستسلام وبيروقراطية . . فكتب يعارض قصيدة شوقى الذى يبجل فيها المعلم . . يقول :

شوقى يقول وما درى بمصيبتى

قم للمعلّم وفّه التبجيلاَ

اقعدْ فديتُك لا يكون مبجلاً

من كان للنشْء الصغير خليلاَ

لو جرّبَ التعليمَ شوقى ساعةً

لقضى الحياة شقاوةً وخمولا

حسب المعلم غمةً وكآبةً

مرأى الدفاتر بكرةً وأصيلاَ

ويهجر التدريس غير نادم ليكون مراقباً للبرامج العربية فى إذاعة القدس عام ١٩٣٦ .

لقد فتح طوقان عينيه على الاحتلال الإنجليزى جاثماً على صدر بلاده . . بل رأى الوطن يباع ويشترى بثمن بخس . . ورأى الوطن الكبير تتفتت وحدته ويقسمه الاستعمار إلى دويلات وكيانات صغيرة متناحرة . .

ثم هاهو يعيش مأساة الوطن المسلوب فلسطين . . فيثور ويحتج على أساليب الصهيونية التى اقتحمت عليه بيته وحياته . . ومن ثم علا صوته يغنى لبلاده ضد السماسرة والعملاء الذين باعوا الوطن :

باعوا الترابَ إلى أعدائهم طمعاً
بالمال . . لكنما أوطانُهم باعُوا

قد يغدرون لوان الجوعَ أرغَمهم
والله ما عطشوا يوماً ولا جاعُوا

وبُلغةُ العار عند الجوع تلقُطها
نفسٌ لها عن قبول العار ردّاعُ

لم تعكسُوا آية الخلاق بل رجعْت
إلى اليهود بكم قُربى وأطماعُ

ومرة . . يدعو فى شجاعة إلى الوقوف ضد العدو . . ولوم زعماء العرب :

جبَّذا لو يصومُ منا زعيمُ
مثل غاندى عسى يفيدُ صيامُه

ليصمْ من مبيعه الأرض يحفظْ

بقعةً تستريح فيها عظامُه

كل يومٍ حزبٌ وحلمٌ فحدّثْ

عن ضعيفٍ سلاحُه أحلامُه

ومرة أخرى يصير أكثر إيجابية . . فيسخر ويهجو من يبكون الوطن ولا يقومون بأى فعل آخر غير البكاء .

أفنيتَ يا مسكينُ عمَرك بالتأوّه والحزَنْ

مالم تقمْ بالعبءِ أنت فمن يقومُ به إذنْ

وطنُ يباعُ ويشترى وتصيح : فليحيا الوطنْ

لو كنت تبغى خَيْرَهُ لبذلتَ من دمكَ الثمنْ

وحينما يتساقط شهداء الوطن من أجل الكرامة والتحرر . . يرتفع صوتهُ بقصيدته الكبرى الشهيرة :

عبسَ الخطبُ فابتسمْ

وطغى الهولُ فاقتحمْ

رابط الجأشِ والنهى

ثابتَ القلبِ والقدمْ

نفسُه طوعُ همةٍ

وجمتْ دونها الهممْ

. . . .

ربما غـالـهُ الـرّدَى

وهو في السّـجنِ مُـرتـهنْ

لـم يشـيّع بـدمـعـةٍ

مـن حـبـيـبٍ ولا سَكـنْ

ربما أدرج الـتـراب

سليـبـاً مـن الكفَـنْ

ويضيق به الإنجليز واليهود. . وتتشابك حوله المآمرات لإقصائه عن الإذاعة. . وهى المنبر الوحيد له للتغنى بالبطولات العربية وكشف مزاعم اليهود. . فاتهمته الصهيوينة بأن أحاديثه قد بلغت(السّفالة ضد اليهود) هكذا. . وعليه أعلنوا الرقابة على كل ما يذاع وينشر. .

ونشرت جريدة دافار اليهودية بعد القبض عليه بتهمة الخيانة تقول:

(وإبراهيم طوقـان مـدير القـسم العـربى فى مـصلحـة الإذاعـة الفلسطينية قد سبق له أكثر من مرة دون أن يخطر ببال أحد تتبع عمله بانتظام. . أن قبض عليه متلبساً بحوادث دعاية ضد اليهود يسبغ عليها ثوباً شفافاً من القصص الشائعة) ويترك طوقان الإذاعة لكن مرضه العضوى كان قد ثقل عليه ليداهمه الموت فى عام ١٩٤١ م. .

لقد كانت فلسطين همه الأكبر. . وقصيدته الوحيدة. . وكان هجاؤه للصهيونية هدفه من ذلك. .

وحسبنا أن نسوق أبياتاً من تلك القصيدة التى رثته فيها أخته الشاعرة **فدوى طوقان** وكأنها تلخص موقفه الوطنى هذا فى وضوح . . تقول فدوى :

أخى أرأيت القضية كيف
انتهتْ أرأيت المصيرَ الرهيبْ
أتذكرُ إذ أنت ترسل شعر
كَ يطوى الحمى عاصفاً من لهيبْ
تحذرُهم من هوانِ المآل
كأنكَ تقرأ لوحَ الغيوبْ
ولكنّ طيفَكَ كان يغيبُ
وراء المدى صامتاً لا يجيبْ
وجرحُكَ يقطُر أذكى دماء
هَمَتْ من حواشى غمامٍ خضيبْ
وراحت تعانقُ جرحَ الحمىَ
حمانا المُسَمَّرَ فوق الصليبْ

ولا يمكن أن ننكر بعد ذلك جهد الشعراء الفلسطينيين فى هذا المجال . . فقد سرت روح المقاومة بالشعر وهجاء السلطة فى شعر كثير من الشعراء . .

هذا شاعر فلسطينى آخر عانى ضياع وطنه فلسطين فجعلها نبض

قلبه ودمه وحياته ذلك هو **معين بسيسو** .

وكانت مأساة فلسطين تكأة يطل منها على أحوال العروبة وأحوال الشعراء وأصحاب الأقلام . .

يقول مثلاً فى قصيدته : عزف منفرد على القانون :

الله . .

ثلاثة شعراء

الأول مات يدافع عن(سيف) الدولة

والثانى مات يدافع عن(طبل) الدولة

والثالث عاش يدافع عن (أحذية) الدولة . .

والرابع . . من . .

والذى كان وطن

أصبح الآن قضية

لا تلوموا البندقية

حينما ماتت ولم تترك وصية . .

إنه هنا يجسّد ليس فقط موقف الشعراء وإنما موقف الأقلام جميعاً حينما ينصرف أصحابها إلى تمجيد السلطة . . والوطن يباع ويشترى تحت أعينهم . .

وها هو ذا يخاطبهم فى قصيدة أخرى بقوله :

أين وجوهكمُ

ترفض كل مرايا العالم

أين أياديكم

ترفض هذى الأيدى القفازات

ويرفض أصبعها الخاتم

ترفض أن تسقط فوق أكفكمُ

كى تلتقط الحب . . عصافير

مادام الشاعر مهدور

نحن جميعاً من غير أياد

نحن جميعاً من غير وجوه

ومرة أخرى يحدق الشاعر بإمعان خلال خريطة السلطة وحاشيتها فى كل بلد عربى . . فيقول رامزاً:

يا أبا الطيب . .

خصيان السلاطين

وغلمان القصور

كل ذى قرط وخلخال

وعقد وأساور

كل من قد شدّه النخاس

من وحل الضفائر

كل من لم يعرف الخيل . .

ولا الليل

وبيداء المخاطر . .

يا أبا الطيب قمْ صحّ النواطر

دقت الأجراسُ للصيد

ثعابين المحابر . .

بشمت من لحمنا . .

هذى الثعالب . .

صار درع الفارس المقتول

بيتا للثعالب

آه يا سيف المحارب!

تجسيد صريح فنى واقعى لما يعيشه الوطن العربى من التمزق والضياع والمهانة وضعف السلطة فى مواجهة الأخطار . .

ونلتقى مع الشاعر **سميح القاسم** ونبكى معه الخزى واستلاب كل شىء مجيد من أيدينا :

فوق جرف الهواء

أنذا واقف

فارساً من هواء

ممسكاً بلجام الهواء

بيرقى من دخان

وجوادى دخان

ودروعى وسيفى دخان

وقلاعى بخار . . وكفاى ماء

وبلادى فضاء . .

ثم يقول :

نازفاً . . عازفاً . . عارياً . . صاحياً

بين أهلى غريب

ظل ثوبى على وردهم

وعلى جبهتى تاج شوك

ونجم ورائى يغيب

بهذا اليأس والإحباط من الإصلاح والخلاص . . يجسد الشاعر مأساة وطنه حتى إن كل شيء وكل أمل له أصبح باطلاً وقبض الريح . .

ولا نود أن ننتقل إلى علامة أخرى دون أن نتوقف عند شاعر كبير فى قامة لا تقل كثيراً عن أحمد شوقى أو حافظ إبراهيم . . وعطاؤه

أيضاً مشهود له بالجودة والتأثير . . ذلك هو الشاعر **محمد الجواهرى** . . وله قصيدة بعنوان (اليأس المنشود أوفلسطين بين العرب والصهاينة) يقول فيها :

يا ناد بين فلسْطيناً صدعتكمُ
بالقول لا منكراً فضلاً لكم صدعاً
أتحمَدُوا أو تذمّوا إن شافعتي
أنى رأيت ومن راء كمن سمِعاً
مررت بالقومِ(شذّاذا) فما وقعتْ
عينى على مُسْتمنّ غيره ضرَعاً
ولا بمن يحرسُ الناطورُ أرجلَهم
مهروءةً سهّلتْ للكلبِ منتزعاً
ونحن . . ما نحن . . قطعان بمذئبة
تساقطت فى يدىْ رعيانها قطعاً
فى كل يوم(زعيم) لم نجد خبراً
عنه . . ولم ندْر كيف اختير واخترُعاً
من ذا يرد لنا التاريخ ممتلئاً
عزاً وإن لم نرد رداً ومرتجعا

ونلاحظ أن الشاعر أيضاً ينطلق من قضية فلسطين ليجعلها قضية

العـروبة كلهـا . . ويـديـن الزعـمـاء الـذين يصلون إلى الحكم وهـم لايستحقونه . .

أما العلامة التالية التى نطرق بابها الآن فهى قصائد **نزار قبانى** السياسية التى تعد من أظهر الهجائيات السياسية المعاصرة .

وإذا قلنا إن نزار قبانى أصبح شاعراً سياسياً بعد ١٩٦٧ فإن ذلك لا ينفى أنه تعامل مع الهجاء السياسى بمباشرة واضحة . .

ونلاحظ أنه فى هجائياته مثلاً . . يتهم الشعراء العرب بالمتاجرة بالكلمة والموقف . . وتغيير عناوين قصائدهم بين العواصم العربية رغبة فى نيل الود والمال . . فقد وقع هو نفسه فى ذلك الفعل المنكر . . ونرى ذلك واضحاً فى أكثر من موقف . .

فلنزار قصيدة فى الشهيد عبد المنعم رياض بعنوان(رسالة إلى عبد المنعم رياض) تعد من أفضل قصائد الرثاء . . لكنه عندما نشرها فى عام ١٩٨٣ فى (الأعمال السياسية الكاملة) كان عنوانها : الجندى العربى المجهول . . وكأنه يريد أن يكسب ود ورضا الحكام العرب كافة . .

وعندما هاجم الأردن بعد مذبحة أيلول(سبتمبر ١٩٧٠) فى قصيدة(دفاتر فلسطينية) لم ينشرها فى أى ديوان له . . مما يجعلنا على يقين من التقلب السياسى لدى الشاعر وخوفه من غضب بعض الأنظمة العربية . .

ولقد وقف نزار أمام صدام حسين فى مؤتمر الأمة العربى عام ١٩٨٤ يزيف التاريخ ويبالغ فى نفاقه . . ويقرر أن بغداد كسرت

لكننا نود هنا أن نتغاضى عن ذلك مؤقتاً ونتعامل مع بعض نصوص نزار الهجائية التى تناسب سياق هذا البحث . .

ونبدأ بأبرز وأولى هذه القصائد(هوامش على دفتر النكسة) والتى يبث فيها غضبه وكراهيته . . وذمّه للأنظمة العربية . . ويصور الشعور بالمرارة واليأس . . وهو يعترف فى بداية القصيدة بهذا التحول فى إبداعه قائلاً :

ياوطنى الحزين

حوّلتنى بلحظةٍ

من شاعر يكتب شعر الحب والحنين

لشاعر يكتب بالسّكين

ثم يكشف فى تقريرية شديدة عن موطن الداء :

إذا خسرنا الحرب لاغرابة

لأننا ندخلها

بكل ما يملكه الشرقى من مواهب الخطابة

بالعنتريات التى ما قتلت ذبابة

لأننا ندخلها بمنطق الطبلة والربابة

. . . .

خلاصة القصة

توجز فى عبارة

لقد لبسنا قشرة الحضارة

والروح جاهلية . .

ثم يسوق هذا اللوم الذى يقرب من الهجاء إلى السلطة العربية فيقول :

كان بوسع نفطنا الدافق فى الصحارى

أن يستحيل خنجراً من لهب ونار

لكنه . . وا خجلة الأشراف من قريش

وا خجلة الأحرار من أوس ومن نزار

يراق تحت أرجل الجوارى

. . . .

نركض فى الشوارع

نجعل من أقزامنا أبطالا

نجعل من أشرافنا أنذالاً

ثم يخاطب السلطان فى شجاعة قائلاً :

ياسيدى السلطان

لقد خسرت الحرب مرتين

لأن نصف شعبنا ليس له لسان

ما قيمة الشعب الذى ليس له لسان

لقد خسرتَ الحرب مرتين

لأنك انفَصلتَ عن قضية الإنسان

ويذكر أنه حينما نشرت هذه القصيدة اختلف حولها الكثيرون . . وتساءلوا كيف لشاعر قضى عمره وأنفق طاقته الإبداعية فى غرف نوم المرأة وعطورها وملابسها . . يخرج هكذا فجأة إلى الواقع ويكشف سلبياته ومثالبه وعيوبه . . وهو نفسه - نزار - أحد أسباب وجود هذا الواقع المتردى بما كان يصرف به الشباب والقراء إلى موضوعات الجنس والعاطفة والعرى . .

ومن ثم كانت المباشرة والتقريرية التى اتسمت بها القصيدة تتشابه مع أى مقال صحفى انتقد الأوضاع العربية فى أعقاب النكسة فى أى صحيفة شجاعة .

ومرة أخرى نراه يهجو حاكماً عربياً يظهر فى التلفزيون يحدث العرب عن الهزيمة وكأنها عيد من الأعياد . . فيقول فى قصيدته(خطاب) مايو ١٩٧٢ :

كنتُ بعد الظهر فى المقهى

وكان البهلوان

يلبس الطرطور فى الرأس ويلقى

كل ما يطلبه المستمعون

عن حزيران الذى صار مع الأيام

ما يطلبه المستمعون . .

واحتفالاً مثل عيد الفطر والأضحى

أراجيح . . وكعكا . . وفطائر

وزيارات مقابر . .

ثم يقول عن السلطان :

يا أميرالبر والبحر ويا عالى الجناب

سيف إسرائيل فى رقبتنا

سيف اسرا

سيف اسر

ركب السيارة المكشوفة السقف

إلى دار الإذاعة

ورشانى بخطاب . .

وفى قصيدته(الممثلون) يقول فى سخرية لاذعة :

حرب حزيران انتهت

وحالنا والحمد لله ـ على أحسن ما يكون

كتابنا على رصيف الفكر عاطلون

من مطبخ السلطان يأكلون

بسيفه الكبير يضربون

حرب حزيران انتهت

وضاع كل شىء . .

الشرف الرفيع والقلاع والحصون

والمال والبنون . .

ويكتب نزار عن مأساة لبنان وعن فلسطين وعن ضياع فكرة القومية العربية ويدين السلطة فى كل ما يكتب لأنها السبب فى التمزق العربى أو على حد تعبيره :

ما بين كل شارع وشارعٍ

قامت بلد . .

ما بين كل حائط وحائطٍ

قامت بلد . .

ما بين كل نخلة وظلّها

قامت بلد

ما بين كل امرأة وطفلها

قامت بلد . .

أو هو يصور الحال بدقة أكثر فى قوله :

وخريطة الوطن الكبير فضيحة

فحواجز . . ومخافر وكلاب

ويمعِن فى هجائه اللاذع قائلاً :

العالم العربى إما نعجة مذبوحة

أو حاكم قصاب . !

أو يقول :

الحاكم يضرب بالطبلة

وجميع وزارات الإعلام تدقّ على ذات الطبلة

وجميع وكالات الأنباء

تضخم إيقاع الطبلة

والصحف الكبرى والصغرى

تعمل أيضاً راقصة

فى ملهى تملكه الدولة

والطبلة هنا بالطبع رمز الكذب والنفاق الذى تردده كل وسائل الإعلام . وتبلغ مأساة القهر النفسى الذروة لدى نزار عندما يرى النفاق يسود المجتمع خوفاً من بطش السلطة . . فيقول :

وعلينا أن نهتز إذا غنى السلطان

ونصيح أمام الشرطة : آه . .

آه . . يا آه . .

آه . . يا آه . .

طرب مفروض بالإكراه

فرح مفروض بالإكراه

موت مفروض بالإكراه!

ويعلن موقفه الرافض والمعارض ثائراً على الأنظمة العربية صائحاً:

من أجل هذا أعلن العصيان

باسم الملايين الذى تساق نحو الذبح كالقطعان

باسم الذين انتزعت أجفانُهم

واقتلعت أسنانُهم

وذُوِّبوا فى حامض الكبريت كالديدان

أعلن العصيان

باسم الجماهير التى تجلس كالأبقار

تحت الشاشة الصغيرة . .

باسم الجماهير التى تضرع لله

لكى يديم القائد العظيم

وحزمة البرسيم . .

وهكذا يكشف نزار عن جوهر المأساة : إن العرب قوم مسلوبو الإرادة . . وسلاطينهم وحكامهم لا يهمهم شعوبهم وإنما يهمهم الاحتفاظ بعروشهم وأن يغنى لهم الشعراء وتنافقهم الأقلام .

والجزاء العادل ـ من وجهة نظر السلطة ـ لهؤلاء المنافقين هو الأمان من العقاب بل والاقتراب أكثر من السلطة . . والجلوس على مقاعد أعلا وأرفع من مقاعد الآخرين .

وعلى الشاعر أو صاحب الموقف الذى ينتقد ويكشف العورات . . ويحرض الجماهير أن يسجن أو يقتل . . أو يحرم من رضا السلطة . .

ومع ذلك فإن نزار ـ دون غيره ـ لم يصب بسوء . . ولم يعان الاضطهاد من أية سلطة عربية بالرغم من هجائه المستمر حتى آخر يوم فى حياته . . فى حين نال العقاب شعراء آخرون فى مصر والعراق وسوريا . . بين السجن . . والتنكيل والاهانة من أجل كلمة شجاعة قالوها .

ويجدر بنا أن نسوق ملاحظة مهمة فى هذا المجال . . فنزار قبانى ـ كما أوضحنا ـ اتسمت أشعاره السياسية بالمباشرة والتقريرية . . فبعدت كثيراً عن الفنية ـ وإن كان تأثيرها قوياً فى وجدان القراء . .

لكن الشعراء الآخرين . . كانوا يخشون سطوة السلطة إلى جانب أنهم كانوا يريدون أن يبدعوا فى إطار الفن الجميل . . فلجأ كثيرون إلى لعبة الأقنعة الفنية . . والمعادل الموضوعى ـ والرموز التراثية .

وفى رأينا أن مثل هذه القصائد هى التى يكتب لها البقاء عبر الزمان

لأنها تحمل فى داخلها بذور الامتداد فى الزمان والمكان . . ولا تقف فى دائرة الحدث الآنى . .

فعل ذلك رواد الشعر فى الموجة الأولى للشعر الحديث . . السياب والبياتى وصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطى حجازى وفتحى سعيد . . وفعل ذلك أيضاً جيل الستينيات وفى مقدمتهم **أمل دنقل** . . الذى يقول مثلاً فى قصيدته (مذكرات المتنبى فى مصر) :

تسألنى جاريتى أن أكترى للبيت حراساً

فقد طغى اللصوص فى مصر بلا رادع

فقلت هذا سيفى القاطع

ضعيه خلف الباب متراساً

(ما حاجتى للسيف مشهورا

مادمت قد جاوزت كافورا)

(عيد بأية حال عدت يا عيدُ

بما مضى أم لأرضى فيك تهويدُ)

نامت نواطير مصر عن عساكرها

وحاربت بدلاً منها الأناشيدُ

ناديت يا نيل هل تجرى المياه دماً

لكى تفيض ويصحو الأهل إن نودوا

عيد بأية حال عدت يا عيد . .

وهو هنا كما نرى يستخدم الإطار الرمزى ويشطرٍ قصيدة المتنبى الشهيرة فى ذم كافور . . ويترك للقارئ فك الرموز الغائبة . .

ويقول أيضاً فى قصيدته : (كلمات سبارتكوس الأخيرة)

المجد للشيطان معبود الرياح

من قال لا فى وجه من قالوا : نعم

من علم الإنسان تمزيق العدم

من قال لا . . فلم يمت

وظل روحاً أبدية الألم

ثم يقول :

لا تحلموا بعالم سعيد

فخلف كل قيصر يموت . . قيصر جديد

وخلف كل ثائر يموت . .

أحزان بلا جدوى

ودمعة سدى . .

ثم هاهو يستعيد حرب البسوس فى قصيدته الشهيرة(مقتل كليب) التى واجه فيها الرئيس السادات وهو يعقد اتفاقية كامب ديفيد . . صارخاً :

لا تصالح على الدم إلا بدم
لا تصالح ولو قيل رأس برأس
أكل الرءوس سواء
أقلب الغريب كقلب أخيك
أعيناه . . عينا أخيك
وهل تتساوى يد سيفها كان لك
بيد سيفها أثكلك . .

. . . .

لا تصالح
ولو قيل ماقيل من كلمات السلام
لا تصالح
ولو قيل إن التصالح حيلة . .
إنه الثأر . .
تبهت شعلته فى الضلوع
إذا ما توالت عليه الفصول . .

. . . .

لا تصالح
ولو وقفت ضد سيفك كل الشيوخ

. . . .

غيـر أن تحـذير أمل للسلطة قـد ذهب هبـاء . . وانهـار الحلم الوطنى . . وانهارت معه كل القيم الإنسانية . . وتسربت كرامة العرب من بين أصابعهم وأمام أعينهم بلا ندم . . ليكون الواقع الراهن الذى نعيشه اليوم!

حرية التعبير

بين الماضى والحاضر

من المهم الآن بعد أن طالت رحلتنا خلال التاريخ والحاضر . . أن نناقش قضية حرية التعبير ـ خاصة عند الشعراء ـ باعتبارها تتعلق بطرفى القضية : السلطة والشاعر .

وقد عرف التاريخ البشرى منذ القدم الرقابة على الأدب والفن والفكر . . وصودرت بعض الأعمال التى ظنتها السلطة خطيرة عليها أو على المجتمع . .

وأقدم موقف رقابى كان فى الدولة الرومانية القديمة . . حينما تدخل الإمبراطور أغسطس وحارب أدب الإثارة الجنسية لأنه كان يرى فى هذا اللون من الكتابة أحد أسباب الانحدار الخلقى فى المجتمع الرومانى . .

ويبدأ الصراع بين السلطة والفكر . . وكانت سلطة الدولة وسلطة الكنيسة تنظر إلى الكتب والصحف باعتبارهما تهديداً لسلطانهما . .

ويذكر التاريخ أن هنرى الثانى حاول السيطرة على المطابع التى تطبع الكتب الممنوعة . . وبفضل الثورة الفرنسية(١٧٩٨) والحروب

الأهلية المختلفة وحركات الإصلاح الدينى فى أوربا . . والتحرر من السلطة الكنيسة . . ارتفعت الأصوات بتحرير الأقلام .

وبالرغم من ذلك تصاعد الصراع بين الطرفين : الفكر والسلطة . . وعندما ألف ميكيافيلى كتابه(الأمير)١٥٣٢م بترخيص من البابا (كليمنتى) وصفه بعض أساقفة الكنيسة بأنه كتاب كتب بأصابع الشيطان . . وفى عام ١٥٥٧م أصدر البابا بولس السابع منشوراً يلصق فيه الكفر لميكيافيلى . . وصار الكتاب من المحرمات .

واشتدت بعد ذلك قبضة السلطة . . ونشرت الكنيسة فى عام ١٥٦٣ قائمة بالكتب المحرمة . . ونال جاليليو عقابه لاعتراض الكنيسة على فكرته العلمية . . وتحايل الفنان الأسبانى(جويا) على السلطة حينما صور لوحة(ماجا العارية) . . فكساها ثوباً شفافاً ونجا من العقاب . . وغير ذلك كثير . .

وفى عالمنا العربى المعاصر . . خضعت معظم الدول إلى السلطة العثمانية حتى القرن العشرين . . وكانت نصوص القانون العثمانى تفرض الرقابة على إنشاء المطابع . . وعلى الكتب . . وبعد انسلاخ مصر من الحكم العثمانى فى عهد محمد على . . فرضت الرقابة على الفكر نتيجة واقعة مثيرة يحكيها د. ابراهيم عبده فى كتابه : (محنة الصحافة وولى النعم) ١٩٧٨ ـ فقد كان بين مدرسى مدرسة الفنون الجميلة الإيطالى بيلوتى . . وكان قد نظم قصيدة شعرية طويلة أسماها (ديانة الشرقيين) أساء فيها إساءة بالغة إلى الإسلام والمسلمين . . ودعا فيها إلى التهوين من أمر هذا الدين ساخراً برجاله ـ ثم اتفق بيلوتى سراً ـ مع نيقولا مسابكى أفندى ناظر مطبعة بولاق على طبع

القصيدة فى كتيب صغير . . وكان مسابكى هذا تلميذاً لإيطاليا وأحد مبعوثى الوالى فيها . . ولا يعنيه أمر احترام الإسلام فى شىء . . وكانت إيطاليا نفسها موطن العداء للإسلام فى ذلك الوقت . .

وتم طبع القصيدة . . وحدث أن كان قنصل إنجلترا فى مصر وقتئذ فى خصومة مع النظام الإيطالى . . فرآها فرصة للإيقاع به لدى محمد على . . وتم له ما أراد . . فأمر محمد على بالكتاب وأحرقه . . وكاد يقتل مسابكى . . وأصدر أمراً فى عام ١٨٢٣م يحرم طبع أى كتاب إلا بإذن خاص منه شخصياً . . وتتوالى بعد ذلك القوانين الخاصة برقابة الفكر والمطابع . .

وكان من أثر هذه المواقف وغيرها أن ثار الجدل حول حرية التعبير ومفهومها وحدودها فى كل العصور . .

ويبدو أن مفهوم الحرية قد حار فيه الفلاسفة والمفكرون والسياسيون . . حتى إن الدكتور زكريا إبراهيم جعلها مشكلة من مشاكل الفلسفة . . وكتب عنها كتاباً يحلل فيه هذه الفكرة . . محاولاً وضع ضوابط ومفاهيم لها . .

إنه يقرر أن الحرية بحسب معناها الاشتقاقى هى عبارة عن انعدام القسْر الخارجى . . والإنسان الحر بهذا المعنى هومن لم يكن عبداً أو أسيراً ومن هنا فقد اصطلح التقليد الفلسفى على تعريف الحرية بأنها اختيار الفعل عن روية مع استطاعة عدم اختياره أو استطاعة اختيار ضده . .

ثم يعرض الدكتور زكريا آراء الفلاسفة فى الحرية وعلاقتها

بالضرورة والإرادة والفكر والوجود الإنساني . . ويقرر أن كثيراً من الفلاسفة يتوهمون أن الحرية حقيقة مطلقة لا تقبل زيادة أو نقصان . . لكننا لا نستطيع أن نصل إلى مرحلة الحرية الكاملة لأن حريتنا تنطوى دائماً على شيء من اللاتحدد . . واللاحتمية . .

وليس هناك شك فى أن الحرية هى الخير الوحيد الذى يتطلبه المرء بشكل مطلق . . والواقع أننا حينما نتحدث عن الحرية فإنما نعنى ذلك(الخير) الذى يعلو سائر الخيرات ؛ لأننا لن يكون فى وسعنا بدون الحرية أن نمتلك أى خير أو نستمتع بأى خير . .

وليست الحرية مجرد اختيار بين فعلين وإنما هى موقف شامل يختار الموجود فيه ذاته . . ومن ثم فالإنسان الحر إنما هو ذلك الإنسان الذى يعرف أن حياته ليست سوى تحقيق مستمر لكل القيم المتضمنة على شكل قوى أو إمكانات فى ثنايا ذاته .

إن الحرية فى النهاية تعنى القدرة على الخلق . . خلق الجدّة والعمل على تحقيقها . . وخلق وجود خصب من شأنه أن يكون نسيج وحدة . . وأن يحقق فى الكون مالاسبيل إلى تحقيقه بدونه !

* * *

وندرك من هذا العرض السريع أن حرية التعبير هى حرية الخلق والإبداع فى إطار القيم والإضافة والخير للبشرية وإنشاء عالم أفضل . .

وقد اختلف القدماء فى المجتمع العربى كذلك حول مفهوم حرية التعبير . . ولأن الشعر كان الوسلية الإعلامية المحورية . . فقد وجهوا

انتقاداتهم للشعراء وصنفوهم إلى فئات واضعين فى تقويمهم موقف الشعراء وجودة قصائدهم . .

أما السلطة فى المجتمع العربى فلم تكن مكتوفة الأيدى أمام شطط الفكر أو الشعر والتاريخ العربى حافل بهذه المواقف التى بطشت فيها السلطة بأصحاب الفكر أو الشعراء . . أو منعتهم أو حذرتهم من الانحراف فى التعبير فى إطار القيم والتقاليد العربية .

وقد مر بنا خبر **طرفة بن العبد** بإيعاز من الملك عمرو بن هند لأنه هجاه وأعجبته أخت الملك فتمنى أن يقبّلها .

وهذا الخليفة عمرو بن الخطاب وموقفه من **الحطيئة** حين هجا الزبرقان فأمر بسجنه فى بئر تحت الأرض ولم يعف عنه إلا بعد أن استرحمه بقصيدة .

ويذكر الأغانى أن عمر بن الخطاب أيضاً كان قد حذر الشعراء من التشبيب بالنساء وإلا جلد من يفعل ذلك . .

وكان الشاعر **حُميد بن ثورْ الهلالى** مشهوراً بالتشبيب . فوقع فى حيرة شديدة وخشى عقاب الخليفة . . لكنه استطاع أن يفلت من هذا العقاب حينما تحايل وشبه المرأة بالشجرة المتفرعة . . وكأنه يقدم لنا فى مرحلة باكرة فكرة ـ المعادل الموضوعى ـ التى قال بها إليوت بعده بقرون كثيرة . .

يقول حميد فى هذه القصيدة :

نأتْ أم عمرو فالفؤاد مشُوقُ

يحنّ إليها والهاً . . ويتوقُ

إذا القوم قالوا وردهنّ ضحى غدٍ

تواهقْن حـتى وردهنّ طروقُ

وقلتُ لعبد الله يوم لقيته

وقد حان من شمس النهار خفوقُ

سقى السَّرحة المحلال والأبطح الذى

به الشرْى غيثُ مدجن وبروقُ

علا النّبْتُ حتى طال أفنانها العلا

وفى الماء أصلُ ثابتُ وعروقُ

فيا طيب ريّاها ويا بردَ ظلِّها

إذا حان من حامى النهار ودوقُ

وهل أنا إن عللتُ نفسى بسرحةٍ

من السّرح مسدودٌ علىّ طريقُ

وما جد مشتاق أصيبَ فؤادُه

أخى شهوات بالعناق نَسِيقُ

أبى الله إلا أن سرحةَ مالك

على كل أفنانِ العضاه تروقُ

فهو هنا يتناول السرحة وهى اسم امرأة . . ولكنها أيضاً تعنى الشجرة العظيمة المتفرعة من شجرة العضاه . . ظلها بارد . . يستظل

بها ساعة الحر . . فكنى حميد بها عن المرأة التى يشبب بها . . ويظل طوال القصيدة يكنّى ويكنّى حتى لتحسبه يتحدث عن الشجرة وليس عن المرأة التى يشبب بها . . وبهذا أفلت من العقاب وفى ذلك يقول :

ومـالى من ذنـب إليـهـم علمـتُـه

سوى أننى قد قلتُ يا سرحةُ اسلمىِ

بلى فاسلمى ثم اسلمى ثمت اسلمى

ثلاث تحـيـات . . وإن لم تكلمى

بل نجد مشهداً أكثر وضوحاً فى علاقة السلطة بالشعراء . . حيث نلتقى بالشاعر **وضاح اليمن** والذى لم يكف عن التشبيب بالنساء . . لكن المؤرخين يتغاضون عن تفاصيل قصته مع معشوقته(روضة) ويلتفتون إلى قصته التى كانت سبباً فى إنهاء حياته بطريقة شبة درامية أو مأساوية . . وهى سيرته مع أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان . . وزوج الوليد بن عبد الملك .

وبالرغم من اختلاف الكثيرين حول تفاصيل القصة ومصداقية نهايتها . . فإنهم جميعاً متفقون على أنها بدأت حينما استأذنت أم البنين زوجها الخليفة فى الحج فأذن لها . . فبلغت مكة فى جوار حسان لم ير أهل مكة مثلهن . . وكنّ سافرات يتعرضن للغزليين من أهل الحجاز . . وكان الوليد قد توعد الشعراء إن هم تغزلوا فى الملكة أو إحدى وصيفاتها . . لكن الملكة كانت تحب أن يتغزل فيها الشعراء كما تغزلوا بغيرها من الملكات والأميرات والشريفات . . فصحبت معها فى رحلة الحج كثيّراً ووضاحًا وطلبت من كثيّر أن يقول فيها

غزلاً . . فاستحى وخاف وعيد الخليفة . . فذكر جارية لها يقال لها غاضرة . . أما وضاح فتغزل فى الملكة نفسها . . ووصل ذلك إلى سمع الخليفة فحنق عليه ودبر لقتله . . وتم له ذلك . .

وكان العصر الأموى قد اشتهر بالشعراء العذريين . . وكانت تقاليد العرب تقضى لمن يشبب بامرأة . . أن يحال بينه وبينها وتحرم عليه . . وكان السلطان يحرم دمه أيضاً .

وقد مر بنا أيضاً كيف قتل بشار لأنه هجا الخليفة . . وقصة مقتل المتنبى مشهورة، كما لا يجب أن ننسى مقتل ابن المقفع على أيدى الخليفة المنصور . . وإحراق كتب ابن رشد فى الأندلس . . واضطهاد ابن حنبل لأنه لم يقل بخلق القرآن . . وهكذا . . . . .

وها نحن فى العصر الحديث ومظاهر بطش السلطة بالشعراء وأصحاب الفكر ماثلة فى عيوننا . . ولنا أن نذكر القارئ بالشاعر الريفى **هاشم الرفاعى** ابن أنشاص شرقية (١٩٣٥ ـ ١٩٥٩) وكيف ثار على الاحتلال البريطانى فى أثناء دراسته بالأزهر الشريف فيصدر قرار بإبعاده عن الأزهر . . وحينما حذره شيخ المعهد من مواصلة هجائه للإنجليز والسلطة هجاه هو بقوله :

فقولوا لشيخ السّوء لا بورك اسمُه

ولا عاش باسم العلم فينا يقيّدُ

أجئت عميداً أم ترى جئت غازياً

فأنت على الطلاب صخرٌ وجَلْمدُ

لحى الله أعـوانـاً لئـامـاً تجـمـعـوا

هم الـذئبُ غـدراً والرياءُ المجـسّـدُ

ذليـلٌ يرى المـلك الـذليـلَ إلـهَـــه

يُكاد لـه خـوفـاً . . يصلى ويسْجُـد

وينصبُ فـوق الرأسِ منه عـمـامـةً

تشعّ بيـاضـاً بينمـا القلبُ أسـودُ

ويلتحق الفتى بدار العلوم حيث تتجدد نوازع الثورة مرة أخرى فى داخله . . وتهـدد السلطة أسرته فى أنشـاص فى رزقهـا وحـياتهـا . . وتكثر أعداؤه بعد أن كتب قصائد شتى تدافع عن الإنسان فى كفاحه ضد العدوان ومن أجل الحرية . .

وقصيدته(رسالة فى ليلة التنفيذ) التى ألقاها فى مهرجان دمشق عام ١٩٥٩ تقطر حرارة ووطنية وأسى . .

وتنقسم السلطة إزاء الشاعر . . بعض منها يشجعه وكثير يحقد عليه لتفوقه ونباهته وصدقه فى إبداعه . .

وهاهم يسلّطون عليه من يستدرجه إلى النادى وقد خلا منه رواده ويقتلونه بطعنات خائنة . .

ولا شك أن السنوات الطويلة التى مرت بالعالم العربى فى النصف الثانى من القرن العشرين . . كانت حافلة بألوان النضال ضد أساليب البطش والتعذيب والسحل والقتل والنفى لعدد كبير من أصحاب الأقلام والشعراء . .

ولسنا فى مجال يجعلنا نقوم بصدق هذه العلاقة بين الطرفين . . فقد اختلفت حولها الآراء والأهواء بحيث لم نعد نعرف ما الصواب الذى كان وما الخطأ الذى حدث فى مسيرة هذه العلاقة . .

والسؤال هنا : كيف واجه الشعراء بطش السلطة وجهلها دون أن ينالهم سوء كبير منها . .

لقد لجأ الشعراء إلى حيل فنية كثيرة لممارسة حرية الفكر والتعبير معتمدين على جهل القائمين فى السلطة عن الوصول إلى ما وراء الرمز أو القناع أو الحكاية أو الأسطورة . .

ومن يقرأ دواوين الشعراء فى الجيلين الأولين لمرحلة القصيدة التفعيلية يدرك تماماً مدى المعاناة التى كان يحسها الشاعر من أجل أن يقول كلمته . .

كان عبد الناصر حلم الشعراء فى الحرية والخلاص . . حتى إن كثيراً منهم خصص دواوين كاملة يعبر فيها عن حبه وإعجابه بهذا الزعيم وإنجازاته . .

وقبل نهاية عام ١٩٦٤ كان الجيش المصرى قد تورط فى حرب اليمن . . وبدأت مرحلة تكميم الأفواه والزج فى السجون لمن يتحدث بغير ما يساير هوى السلطة . .

وأحسّ الشعراء بشىء من خيبة الأمل . . فتسلل الحزن إلى وجدانهم . . ويعبر عن ذلك **صلاح عبد الصبور** قائلاً :

لكنا حين ضحكنا أمس مساء

رنّت فى ذيل الضحكات

نبراتُ بكاء

واتكأت فى عينىّ دمعات

أغفت زمناً فى استيحاء

كانت عيناك تقولان لقلبى ولعينى

الجرح هنا . . لكنى أخفيه

وأداريه . .

لكن ما يولد فى الظلمات يفاجئه النور

فيعريه . .

وفى قصيدته (الظل والصليب) يرى الشاعر أن كل شيء من حوله يدعو إلى السأم . . وأن لا شيء له جدوى أو نفع . . وأظن ذلك انعكاساً لحالة اليأس العام الذى ساد المجتمع وقتئذ :

هذا زمان السأم

نفخ الأراجيل سأم

دبيب فخذ امرأة ما بين إليتى رجل

سأم . .

لا عمق للألم . .

وكما فعل عبد الصبور فعل **أحمد عبد المعطى** حجازى بواقعية أكثر حيث يقول :

لن أترجّل

لن يأخذنى الخوف

فأنا الأصغر لم أعرف بعد مصاحبة الأمراء

لم أتعلم خلُق الندماء

لم أبع الكلمة بالذهب اللألأ

ما جردت السيف على أصحابى

فرسان الكلمة

لم أخلع قلب الفارس يوماً

فوق أمير أبكم . .

ويقول **أمل دنقل** كذلك :

وكان يبكى وطناً

وكنت أبكى وطناً

نبكى إلى أن تنضب الأشعار

نسألها : أين خطوط النار

وهل ترى الرصاصة الأولى هناك

أم هنا . .

وبعد حدوث النكسة علا صوت الشعراء وانقسموا على أنفسهم . . بعضهم كتب شعرَ الألم والحزن الوجودى . . وبعضهم كتب شعر الصمود والإصرار . . ورفض الهزيمة . . وفريق رأى فى مصر محبوبته الأثيرة التى بعدت عنه فأخذ يغنى لها . . وفريق اتكأ على التراث وأخذ يستصرخه ويعيد صياغته شعراً ومسرحاً .

ويبدو أن صدمة النكسة كانت أليمة على جيل الستينيات الذى مثل الموجة الثانية فى الشعر العربى الحديث بعد جيل الرواد . . كانوا لايزالون يحاولون تثبيت أقدامهم فى ساحة الشعر وتشكيل رؤية خاصة بهم ترفض التصوير الآلى للواقع واجترار هموم الذات . . واحتذاء الصيغ الشعرية التقليدية . .

ومن ثم انعكست النكسةبآثارها المحزنة الضاغطة . . على أشعار هذا الجيل وجيل الروّاد فلجئوا إلى استلهام التراث القومى وشخصياته وأحداثه لإبراز المفارقة بين الماضى والحاضر الأليم . .

فهذا الشاعر **عبد الوهاب البياتى** يرصد عيون السلطة حوله . . بدلاً من أن تترك العيون ترصدها هى . . فيقول فى قصيدته(المخبر) :

السيد البرميل

قفاه بطنُه . . وبطنُه قفاه

ذرب اللسان

يحفظ شعر المتنبى

ويقول الشعر أحياناً بلا أوزان

لكنه يخطئ فى الإملاء والإعراب

يلقط فى عيونه الحروف والخطوط والأرقام

يحصى نقود العابرين وهى فى جيوبهم

تنقص أو تزداد

يعيد ما يقول أو ما قاله الإمام

فى خطبة الجمعة أو فى مأتم يقام

يتقن فن الكذْب والتزوير فى الأحكام

يركب كل موجة . .

لكنه يسقط قبل شاطئ الأمان

ثم ينهى مصير هذا المخبر هكذا :

وينتهى كما انتهى اللصوص والشطّار

عبداً إلى أسياده

وخادماً للبيع والإيجار . .

وفى نفس السياق المحتج على أساليب السلطة وأساليب من يتعامل معها ويتحيز لها بالزيف والخداع . . يصرخ **فتحى سعيد** :

أرفضهم جميعاً

القزْم والعملاقَ والنمنمَ الوديعا

الأسود المخصىّ والمخنث الرقيعا

أرفضهم جميعاً

الحارق البخُورَ والنذورَ والشموعا

الساكبَ الدموعَ والبيانَ والبديعا

أرفضهم جميعا

لأنهم فى ساحة الصراع بايعوا الخنوعا

وقايضوا بليل . .

الشيخ والرضيعا

لأنهم فى موسم الشتاء

ضاجعوا الصقيعا

وأجهضوا الربيعا . .

ويفجر **بدر توفيق** قضية العصر . . ويصوره بعصر القتلة فيقول :

هذا عصر القتلة

عصر القتلة

دمك الطفل الباكى فى كل بيوت العالم

دمك الأم الثكلى فى كل بيوت العالم

دمك الشىء الباقى فى كل بيوت العالم

تيجان الشوك غطاء فوق رءوس الجند

وصليبك يُحمل فى لحظات الميلاد الأولى

علماً يعلو صمت الجدران . .

ويصور **مهران السيد** تجربة السجن والاضطهاد فيقول :

ساقوه بلبلٍ مفقوءِ العينين

غريب السحنة والقسمات

زجّوه بأرض غطّاها البُوم وفاضت بالحيات

صمتاً

فتروس الآلة تخرج أيديها الآن

جحظت عيناه . .

خرجت من أذنيه الآه

وتأرجحَ فى صمت أثقل من كل ذنوب

عباد الله

كانت أرض الساحة

كالكأس الملأى بالأحزان

طفحت بحشودٍ

فيها المتجهّم والجوعان

الشارب والظمآن

الغافل والمتيقظ . . والمتأفف

الساذج والمتفلسف

الأصل مع الأغراب . .

لكن لم يسمع أحد منهم صوتاً

يرتفع ببند من قائمة الأسباب

أو يلمح هذا القاضى أو ذاك

لا شىء هناك

إلا فرقعة سلاح مجهول

ووعيداً يهمى من كل مكان

وخطى جند تجتاز بعيداً فى طرق سرّية

خلف الأفلاك . .

إنه تصوير واقعى من شاعر عاش خلف الأسوار فاقداً حريته وكرامته . . وأحسّ بكل ما يحسّه المجرمون . . لكنه لم يكن مداناً بغير الحب لوطنه . .

ثم نرى **نجيب سرور** يقترح على الشعراء بسخرية أن يتخذوا الموقف السلبى فيقول :

ماذا على الشعراء لو لزموا الحياد

فى زحمة الألوان ظلّوا كالرماد

كالماء لا لون لهم

وليذهب الشيطان بالألوان طرّا

فالشعر شيء . . والسياسة

شيء سواه

كالماء والقطران من حيث الكثافة

ياللسخافة . .

من قال هذا؟

ونود أن نشير هنا إلى أن نجيب سرور له قصائد هجائية تذكرنا بالسخرية البذيئة التى كان يقولها أحيانا أبو نواس أو المتنبى . . لا مجال هنا للحديث عنها . .

وخلاصة القول إن جيل الستينيات قد تحمل عبء وأثر التحولات الزائفة وغير الزائفة . . وكان عليه أن يصرخ ويعبر ولا يصمت . . وكان عليه أن يشارك أحياناً . . ويتمرد أحياناً أخرى على هذه المشاركة إذا هو اكتشف ما وراءها من خداع وزيف .

لقد فتح هذا الجيل للأجيال التالية عليه أبواب التجديد والتجريب والتحديث على مصاريعها . . وربما استطاع هذا الجيل أن يفلت معظمه من عقاب السلطة بما استحدثه من أساليب فنية بعيداً عن المباشرة والتقريرية . . فترك لنا تراثاً فنياً جيداً مرتبطاً بالواقع . . لأنه عايش بصدق مراحل التطور والتخلف والتحول التى مر بها الوطن العربى . . وكثير منه شارك فى الحروب التى وقعت فى المنطقة . . وبذلك جاءت تجربته صادقة متفردة .

ومن يقرأ جيل الستينيات يدرك أنه كان يمثل نقلة خاصة فى مسيرة الشعر العربى المعاصر . . وأنه كان جيلاً شجاعاً مواجها ولم يتخل عن

حقن القصيدة بمزيد من عناصر ومقومات الفن الجميل . .

وتجيء الأجيال التالية لتنقسم على نفسها إلى فريقين : فريق يترسم خطى من سبقه من الأجيال محاولاً الإضافة الواعية من خلال شعر التفعيلة . . والارتباط بالواقع بحميمية شديدة . . وهذا الفريق نجد معظمه فى أقاليم مصر من الشمال إلى الجنوب وفيه أصوات بارزة كثيرة نخشى لو عددناها أن نسقط نسياناً بعضها . .

أما الفريق الآخر فقد تميز بالتمرد على الواقع الشعرى والتعالى على المتلقى . . وطرق مضامين بعيدة تماماً عن الواقع . . وربما كانت انعكاساً إلى الداخل وإلى الذات والانغلاق فى دهاليزها . . ثم ها هى تستحدث بدعاً تملأ بها الساحة وتحاول قهراً أن تطلق عليه شعراً وتتخذ العرى والجسد والإبهام والغموض عناصر عصرية حداثية للتجربة الشعرية .

ولسنا فى مجال يسمح لنا بطرح هذه القضية . . ولا نود أن نطلق أحكاماً هكذا بلا حيثيات . . وإنما أردنا فقط أن نثبت أن الشعر بهذا قد بعد تماماً عن مواجهة السلطة ـ وهذا ما يهمنا ـ فليس معنى أن ينجرف الشاعر فى البذاءة والعرى . . وتصادر السلطة هذا مراعاة للذوق العام أن السلطة تحجر على التعبير . . وواقع الأمر أن الأعمال التى صودرت من قبل السلطة لم تتسم بالفنية التى تحميها وتقيها بطش السلطة وهجومها . .

ومن يقرأ تراث العرب الشعرى يجد الهجاء الساخر والمجون وغير ذلك من الأدب الذى يوقع الشاعر تحت طائلة المساءلة . . لكن الفرق فى تصورنا . . بين ما كتبه القدماء . . وما يقدمه اليوم متحذلقو

الشعر . . أن الجنس كان قديماً جزءاً من الثقافة العربية . . وكان الشعراء يتناولونه فى مكانه وليس خارج حدوده الفنية . . ونحسب أن الشعراء قد حصروه فى المجون والهجاء الساخر غالباً . . وعلى نفس الدرجة كان الجنس فى حكايات ألف ليلة يكون نسيجاً فى هذه الحكايات . .

أما اليوم فنحن نقرأ نصوصاً تصيب بالأسى والغثيان . . لأنها نصوص عارية تماماً من أى جمال وأى فن إلا إثارة الغريزة الجنسية أو الشذوذ الجنسى .

ولا بد أن الإمبراطور أغسطس الرومانى كان لديه كل الحق فى مصادرة أدب الإثارة الجنسية لأنه رأى (أنه أحد الأسباب فى الانحطاط الخلقى فى المجتمع الرومانى)

ولا أظن الشعراء يتخلون ببساطة عن أحد وظائف الشعر والتى تتعلق بالحلم بمجتمع أفضل والتمرد على الواقع المشين . .

ولا نود أن نزيد على ذلك . . ولسنا مدافعين عن موقف السلطة فى الوقوف ضد حرية التعبير . . فقد سبق وأوضحنا أن الحرية تعنى(القدرة على الخلق . . خلق الجدة والعمل على تحقيقها . . وخلق وجود خصب من شأنه أن يكون نسيج وحدة . . وأن يحقق فى الكون ما لاسبيل إلى تحقيقه بدونه)

وختاماً . .

ما أحوجنا اليوم إلى الإفاقة على حال الشعر الذى يمثل أحد عناصر المناخ الثقافى الذى يعانى خللاً فى كل شىء . . وما أجدر الشعراء بأن يكونوا فرسان المبادرة فى إصلاح هذا المناخ!

مختتم

حاولنا فى رحلتنا الطويلة أن نستقرئ علاقة الشعراء بالسلطة ومدى استجابة السلطة للشعراء إن سلباً أو إيجاباً . .

وكان منهجنا منذ البداية . . أن نتوقف عند أبرز العلامات فى تصورنا التى تفيدنا فى هذا الاستقراء . . لنخلص منها بالنتائج التى بثثناها فى ثنايا رحلتنا بين الماضى والحاضر . .

وأكدنا أن مديح الشعراء للسلطة بدا أمراً لا يحطّ من قدر الشاعر لأنه كان بمثابة المكافأة أو العطاء الذى يعين الشاعر على العيش . . لكن الأمر اختلف فى تقويم هذا المديح . . هل هو صادق أم مبالغ فيه . . وما درجات الصدق ودرجات المبالغة . . وبالتالى النفاق وتبدل المواقف . .

وفى مسيرة التاريخ . . عرجنا على مواقف الشعراء الكريمة التى عافوا فيها وتجنبوا المديح من أجل العطاء والكسب . .

كما عرضنا لموقف المتنبى باعتباره أظهر شعراء العربية فى المديح وهجاء من مدحه . . وحاولنا تحليل هذا الموقف بموضوعية شديدة .

ثم تناولنا سلطة الشاعر نفسه وكيف أنه أجهد نفسه من أجل

فرضها على المتلقى من خلال فخره الذاتى .

ثم تناولنا الهجاء السياسى والاجتماعى ودوافعه وبواعثة لدى الشعراء ورحلنا عبر العصور مع علامات بعينها أيضاً لوضع أكثر من إضاءة حول تعدد المواقف الهجائية صدقاً وكذباً حتى وصلنا إلى عصرنا الحديث الذى استحق منا وقفة خاصة أيضاً مع بعض علاماته البارزة فى هذا المنحى . .

ثم رأينا أن نفرد فصلاً حول قضية حرية التعبير . . وحاولنا فيه أن نفّسر مفهوم الحرية وارتباطها بالإبداع الشعرى على وجه الخصوص وكيف حاول الشعراء الإفلات من بطش السلطة أحياناً بالحيل الفنية التى رأينا أن لها جانبين : جانب إيجابى وهو إكساب القصيدة فكراً وفناً وأصالة . . وجانب آخر يقى القصيدة من التقريرية ويحميها من عقاب السلطة . .

على أننا فى النهاية لا ندعى أن الصورة الكاملة قد قدمناها خلال هذا البحث . . وإنما هى محاولة لامتصاص الشجون الذاتية لدى كل مثقف واع بقضية الشعر فى مواجهة السلطة وهى أيضاً . . تفتح الباب لمزيد من الرؤيا والرأى . .

أحمد سويلم

٢٥ مارس٢٠٠٣

أهم المصادر والمراجع

١ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ دار المعارف ١٩٧٩ .

٢ ـ العمدة ـ لابن رشيق ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ دار الجيل ١٩٨١ .

٣ ـ الأغانى للأصبهانى ـ تحقيق إبراهيم الإبيارى ـ دار الشعب .

٤ ـ القاموس الإسلامى ـ أحمد عطية ـ النهضة المصرية ١٩٧٩ .

٥ ـ لسان العرب ـ لابن منظور ـ دار المعارف .

٦ ـ كتاب الموشى ـ أبو الطيب الوشاء ـ دار الفكر اللبنانى ١٩٩٠ .

٧ ـ المحاسن والمساوئ ـ البيهقى ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف ١٩٩٠ .

٨ ـ الموشح ـ للمرزبانى ـ تحقيق على البجاوى ـ نهضة مصر .

٩ ـ السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ الأنوار المحمدية ١٩٩١ .

١٠ ـ تاريخ التمدن الإسلامى ـ جورجى زيدان ـ دار الهلال .

١١ ـ المديح ـ د . سامى الدهان ـ دار المعارف ١٩٧٣ .

١٢ ـ الفخر والحماسة ـ حنا الفاخورى ـ دار المعارف ١٩٧٤ .

١٣ ـ الهجاء ـ د . سامى الدهان ـ دار المعارف ١٩٧٣ .

١٤ـ ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربى ونقده ـ د. درويش الجندى ـ نهضة مصر ١٩٦٩ .

١٥ ـ الحياة الاجتماعية عند العرب ـ ظافر القاسمى ـ دار النفائس ١٩٧٨ .

١٦ ـ حديث الأربعاء ـ طه حسين ـ دار المعارف ١٩٩٣ .

١٧ ـ مع المتنبى ـ طه حسين ـ دار المعارف ١٩٩١ .

١٨ ـ قدامة بن جعفر من النقد الأدبى ـ د. بدوى طبانة ـ الأنجلو المصرية .

١٩ ـ مشكلة الحرية ـ د. زكريا إبراهيم ـ مكتبة مصر ١٩٦٣ .

٢٠ ـ أثر النكسة فى الشعر العربى ـ د. عبد الله سرور ـ دار المعرفة الجامعية ١٩٩٦ .

٢١ ـ شعراء العمر القصير ـ أحمد سويلم ـ الدار العربية للكتاب ١٩٩٩ .

٢٢ ـ الإعلام الشعرى فى التراث العربى ـ أحمد سويلم ـ الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٥ .

٢٣ ـ صناعة الكتاب ونشره ـ د. محمد سيد محمد ـ دار المعارف ١٩٨٨ .

٢٤ ـ تاريخ الكتاب ـ أريك دى جرولين ترجمة ـ د. خليل صابات ـ نهضة مصر .

٢٥ ـ الإسلام والشعر ـ د. سامى مكى العانى ـ عالم المعرفة الكويت ١٩٨٣ .

٢٦ ـ ما الأدب ـ جان بول سارتر ـ الهيئة العامةللكتاب

٢٧ ـ نزار قبانى شاعرا سياسيا ـ د . عبد الرحمن الوصيفى ـ دار الحريرى للطباعة ١٩٩٥ .

٢٨ ـ الغرباء ـ فتحى سعيد ـ الدار القومية ١٩٦٦ .

٢٩ ـ دواوين الشعراء الذين ورد ذكرهم فى البحث قديما وحديثا .

صدر للمؤلف

(أ) الأعمال الشعرية:

* الطريق والقلب الحائر	دار الكتاب العربى ١٩٦٧
* الهجرة من الجهات الأربع	مؤسسة التأليف والنشر ١٩٧٠
* البحث عن الدائرة المجهولة	دار النشر العربى ١٩٧٣
* الليل وذاكرة والأوراق	مكتبة مدبولى ١٩٧٧
* الخروج إلى النهر	هيئة الكتاب ١٩٨٠
* السفر والأوسمة	دار الشروق ١٩٨٥
* العطش الأكبر	مكتبة مدبولى ١٩٨٦
* الشوق فى مدائن العشق	هيئة الكتاب ١٩٨٧
* قراءة فى كتاب الليل . .	دار الشروق ١٩٨٩
* الأعمال الشعرية جـ١ (٨ دواوين)	هيئة الكتاب ١٩٩٢
* شظايا	دار الشروق ١٩٩٣
* الزمان العصى	هيئة الكتاب ١٩٩٥
* الرحيل إلى المدن الساهرة	هيئة قصور الثقافة ١٩٩٧
* لزوميات	هيئة الكتاب ١٩٩٧
* الأعمال الشعرية جـ٢ (٥ دواوين)	هيئة الكتاب ١٩٩٩

* جناحان إلى الجوزاء	دار قبـاء	٢٠٠٠
رعشة فى الأفق	دار الشروق	٢٠٠٢
صرخات تحت قبة الأقصى	هيئة الكتاب	٢٠٠٣

(ب) المسرح الشعرى :

* أخناتون	دار المعارف	١٩٨٢
* شهريار	هيئة الكتاب	١٩٨٣
* الفارس	هيئة الكتاب	١٩٩٥
* الأعمال المسرحية جـ (٣ مسرحيات)	هيئة الكتاب	١٩٩٩

(جـ) دراسات

* شعرنا القديم رؤية عصرية	المجلس الأعلى للثقافة	١٩٨١
* المرأة فى شعر البياتى	هيئة الكتاب	١٩٨٤
* أطفالنا فى عيون الشعراء	دار المعارف	١٩٨٥
* محمد الهراوى شاعر الأطفال	المركز القومى لثقافة الطفل	١٩٨٦
* التربية الثقافية للطفل العربى	مركز الكتاب للنشر	١٩٩١
* مسلمون هزموا العجز	الدار المصرية اللبنانية	١٩٩١
* عظماء أغفلهم التاريخ	الدار المصرية اللبنانية	١٩٩٣
* مجانين العشق العربى	أخبار اليوم	١٩٩٣
* الإعلام الشعرى فى التراث العربى	هيئة الكتاب	١٩٩٥

* الفكر الإسلامى فى ثقافة الطفل العربى	مركز الكتاب	١٩٩٧
* محمود سامى البارودى	الدار المصرية اللبنانية	١٩٩٨
* قيس بن الملوح	الدار المصرية اللبنانية	١٩٩٨
* عنترة بن شداد	الدار المصرية اللبنانية	١٩٩٨
* شعراء العمر القصير (٢ جـ)	الدار المصرية اللبنانية	٢٠٠٠
* نوادر الشعراء فى الظرف والذكاء	الدار المصرية اللبنانية	٢٠٠٣

(د) الأطفال

* حكايات من ألف ليلة وليلة (٥حكايات)	دار الشروق	١٩٨٠
* عشر مسرحيات شعرية	مؤسسة الخليج العربى	١٩٨٧
* حكمة الأجداد (قصص ٣٠ مثلا عربيا)	مؤسسة الخليج العربى	١٩٨٩
* أبو العلاء المعرى	دار المعارف	١٩٩٣
* مدائن إسلامية (٨كتب)	سفير	١٩٩٣
* طفولة عظماء الإسلام (٨ كتب)	سفير	١٩٩٣
* أتمنى لو (قصائد)	الهيئة العامة للكتاب	١٩٩٤
* ديوان الطفل ما قبل المدرسة	التربية والتعليم	١٩٩٥
* بستان الحكايات (١٠ قصص شعرية)	قطر الندى	١٩٩٦
* ديوان الطفل العربى جـ ١	دار الشروق	١٩٩٧
* تعالوا نغنى حروف الهجاء	المكتب العربى للنشر	١٩٩٧

* أنا وأصدقائى (شعر)	هيئة الكتاب	٢٠٠٠
* المسرح الشعرى للأطفال (٥ مسرحيات)	دار الكتاب اللبنانى	٢٠٠٢
* فلسطين عربية (شعر)	نهضة مصر	٢٠٠٣
* واحة الحيوان (قصص شعرية)	قطر الندى	٢٠٠٣

الفهرس



رقم الإيداع ٢٠٠٣/١٠٥١٣
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 09 - 0955 - 6

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

